أندرس باربا

أغسطس / أكتوبر

ترجمة: عمار أتاسي



رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

أغسطس أكتوبر

عنوان الكتـــاب: أغسطس أكتوبر
اسـم المؤلــف: أندرس باريا
اسم المترجم: عمار أتاسي
الموضـــوع: رواية
عدد الصفحات: 88 ص
القيـــاس: 14.5 ❖ 21.5 سم
الطبعـة الأولى: 1000 / 2015 م - 1436 هـ
ISBN: 978-9933-536-10-7

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: +963 11 2314511
هاتـف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

أندرس باريا

أغسطس أكتوبر

ترجمة: عمار أتاسي

Agosto, Octubre

Andrés Barba

Editorial ANAGRAMA
BARCELONA
2010

الفصل الأوّل

ذكرى أغسطس

كان في طريق عودته إلى البيت، مع والديه وشقيقته الصغيرة، قادمين من شاطئ البحر. راودته الإثارة، وكانت أشبه بأمر يقض مضجعه بدل أن تشعره بالنشوة. دخل الحمّام وخلع ثوب السباحة ليبدأ مباشرةً بممارسة العادة السريّة قبل أن يستحم، وهو يحاول استحضار تلك الصور المبعثرة التي شاهدها قبل دقائق على شاطئ البحر، وفي الطريق القصيرة المؤدّية نحو المنزل الذي كان والداه قد استأجراه لقضاء الإجازة. صورٌ لفتياتٍ في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر، أي بسنّه أو أكبر قليلاً منه.

لم يشعر بجسدٍ معيّنٍ! إنما كان يستشعر - بعد أن أغمض عينيه - جمعاً هائلاً من أجساد باهتة الألوان كالأشباح. ورغم ذلك فإنها أجسادٌ ذات معالم واضحة بشكل أثار قلقه، كان يستطيع تمييز انحناءات الأوراك وتدوُّرِ الأثداء وأيضاً التشققات الجلدية والدمامل على الظهور. لا إثارة تذكر في ذلك، بل إن المشهد أثار اشمئزازه، لاسيما أن هذه الصور غير متناسقة وتدعو للعجب.

وفي بعض الأحيان كانت صور الأجساد التي رآها على شاطئ البحر قبل قليل تكاد تُمّحَى من ذاكرته أو تختلط عليه فلا يستطيع تمييزها، ومن بينها صورة الفتاة التي كانت تخلع ملابسها على الرمل لترتدي لباس السباحة، وكيف أن أوراك هذه الفتاة لم تسمح لها بأدنى قدرٍ من الارتياح لدى المشي. أو مثلاً صورة الفتاة نحيلة الظهر، كظهر رجل مريض. أو

صورة أخرىٰ لأذرع متقاطعة حول الأثداء تغطي بياضهنّ البرمـائي المـليء بالأوردة الزرقاء.

لا يزال يمارس العادة السريّة، دون أن يستطيع تحديد شعوره من الصور التي تمر في ذهنه. ينتابه شعور واحد يدفعه إلىٰ الغرق، فيما هو منغمس أكثـر حتّىٰ ينقضي الأمر بالكامل. يتنفس بشدّة من الأعلىٰ نحو الأسفل ثم يلتقط المناديل وينظف نفسه وينظّف الأرض، ومن ثم يتأمل نفسه في المرآة.

العمّة إيلي كانت قد سألته سابقاً حين رأته هذا الصيف: "كم تغـيّرت في هذه السنة؟؟.... لقد أصبحت رجلاً!!"

أصبح رجلاً. في هذا العام، وفي غضون الأشهر الستّة الأخيرة نما بشكـل ملحوظ جدّاً. حتىٰ أن معظم ملابسه لم تعد تنفعه بشيء. أبـوه يعـزو ذلـك لشغفه بممارسة الرّياضة. إلّا أنه لم يكـن مقتنعـاً بكـلام والـده، إذ أنَّ نمـوه المتسارع هذا لم يعجبه أو يقنعه كثيراً. لكنه مع ذلك ومنـذ أن سـمع تعليـق والده انكب بزخم أكبر علىٰ ممارسة التمارين الرياضية.

أخذت ملامحه العامة طابعاً أكثر حدّية، أمّا شـفتاه فلـم تعـودا لحميّتـين طريّتين وصارتا نحيلتين كشفتي والدتـه. وحتـىٰ عظامـه فإنّهـا تـضخمت وظهرت أكثر. و ها قد جعلت من عيونه البريئة الطفولية مـع ظهـور لحيتـه شاباً مذعوراً.

استطاع التأقلم مع التغيير الذي أصابه خلال هذه الـسنة، فمـن خـلال بعض العادات العصبية تعود الحفاظ علىٰ عينـين نـصف مغمـضتين عنـدما يحدّثه أحدهم، بغية أن يوحي لـه كـما لـو أن شـيئاً مـا يزعجـه، أو كطريقـة لإقناع الآخرين أنه يستجيب لما يقولون.

أطرافه جميعها ازدادت طولاً، وجعلتها الرياضة أكثر قوَّة. كـان فخـوراً بعضلات يديه. لكنه لم يكن كذلك بالنسبة لقدميه النحيلتين واللتين اعتقـد

أنهما غالباً ما ستظلّان هكذا، لاسيما عندما يراقب قدمي والده. أمّا صدره فقد شكل اللغز العالق بحالة طفولية رغم كلّ التمارين التي مارسها والتي لم تستطع الحيلولة دون أن يغوص هذا الصدر إلى الداخل أكثر فأكثر.

طوله لا بأس به، يعرف بموضوعية أنه ليس جميلاً.. لكنّه يدرك أن جديّته وقلة كلامه جعلتا منه جذّاباً، نعم لقد تحول في هذه السنة إلى شخصٍ قوي. شخص لم يكن يحلم أن يصبح بقوّته قط. بعد أن عاش طفولته وما بعدها نحيلاً يوحي بأن لعنة ما أصابته.

يتهيّج وهو ينظر إلى نفسه بالمرآة كفتاة قبيحة وهو يردّد: "أنا لست هذا". لقد نظر إلى نفسه خلال هذه السنوات وشعر بالفرق الشرس بين ما يراه وما هو حقّاً عليه.

بعد أن بلغ الرابعة عشرة من عمره بشهر واحدٍ بدأ يشعر بالتغير يطرأ عليه، وبدأت رحلة الغضب الصامت والعض على الفكين.

قالت أمه مرّة: "ليس هذا فقط، عليكم أن تروا كيف أصبح مرتّباً ومنظّماً أيضاً"

ثم قبّلته العمّة إيلي قبلة ذات صوت فاضح ما ضايقه على الفور.

لعلّ النظافة والترتيب هما أيضاً إفرازاتٌ متعلّقة بالتغير الفيزيائي. لأنه فعلاً أصبح دقيقاً كما لو أنه يتبع خطوة بخطوة برنامجاً ما.

عادات أمه تضايقه كثيراً عندما تتكلم عنه أمام الآخرين كما لو لم يكن موجوداً، وخصوصاً عندما تفعل ذلك بحضور العمّة إيلي: "إنّه أمر عجيب.. لقد كان فوضويّاً للغاية... لقد تغيّر بين ليلة وضحاها".

الأرجح أن هذا مرتبطٌ بقدرة والدته السحرية على جعله يبدو في الخامسة من عمره بحركة واحدة أو بكلمة صغيرة، وزجّه في حرج يثير جنونه في كل مرة. جلست العمّة إيلي بالقرب منه وراحت تقترب منه أكثر،

ثم لمست بصدرها الضخم كتفه فابتعد عنها على الفور وهو يبتسم بشكل لاإرادي. حتى المرض لم يستطع أن يجعلها تفقد الوزن أو تبدو أكثر نحفاً. بل على العكس من ذلك، كل يوم تبدو وكأنها منحوتة شمعيّة بيضاء أكبر وأضخم من اليوم السابق.

"لقد أصبحتَ فتىً بالفعل... إنك حتّى لا تريد أن يدلّلك الآخرون!!! أم أنك تبتعد فقط لأنك لا تريد للعمة إيلي أن تقبّلك؟؟؟ "

"سأذهب إلى غرفتي" قالها وانتفض خارجاً.. وقبل الوصول إلى الباب سمع همسات أمه المعتذرة، وردّ العمّة إيلي المتفهّم: "لا عليك يا امرأة، هذا الأمر طبيعيّ".

اعتاد والده أن يستأجر في كلّ سنة بيتاً مختلفاً للتصييف. لكنّه في هذا الصيف، استأجر بيتاً رائعاً، اعتبره الأجمل بينهم جميعاً.

البيت مكونٌ من طابقين ومطلٌّ على البحر. ناهيك عن أنه يحوي غرفاً عديدة.. إذ يوجد أربع غرفٍ في الطابق العلوي، أي أنه وللمرّة الأولى لن يضطر لمشاركة الغرفة مع أخته خلال الإجازة. وللمنزل سطحٌ جميلٌ ومزين بالقصب المربوط بحبال القنّب على الأعمدة وفي المداخل. اضطر عندما دخلوا المنزل للمرّة الأولى أن يخفي صرخة الحماس التي انتابته. البيت يشبه البيوت الإفريقية، أو مساكن المغامرين. أمّا الطابق السفلي، فهو شفّاف ومصمّم على غرار البيوت التي تبنى على ضفاف الأنهار لكي لا يلتهمها الفيضان. لقد كان منزل صيادٍ قديم أعيد تصميمه بشكل عصري وفخم ليصبح بيتاً سياحيّاً لمصطافي المدينة، مرمّم وعريق ومحافظ على أصالته.

خلال الأيام الأولى من الإجازة استمتعوا بالبيت بشكل جنوني، حيث بدوا في أعماقهم عائلة من الأطفال الصغار، بالطريقة ذاتها التي يمكن أن تكون هنالك فيها عائلة كاملة أفرادها من الحزينين أو السعيدين أو حتّى

المخرّبين. مثّلوا دور أطفالٍ يقفزون من الفرح والحماسة ثم يتكدّرون دون سبب واضح، فجأة يجدون أنفسهم بحاجة إلى التحفيز والدفع، خصوصاً في فصل الصيف. وغالباً ما يغيرون وسائل التسلية بتهور وخوف كلّما شعروا بأن الفرح يتضاءل ويتلاشى من بين أيديهم. و كأن الصيف هو فصل الهروب من الهوايات الأخيرة. عادةً يكونون خلال الصيف على درجة كبيرة من الفوضى، توازي درجة الترتيب التي يكونون عليها في الشتاء.

يدير والده في الشتاء مكتباً مصرفيّاً، وتملك أمه صيدلية في مركز المدينة. أمّا هم فكانوا يذهبون إلى المدرسة بانتظام وجدّ. ليسوا عاطفيّين جدّاً لكن بيتهم ساكنٌ يعبق بجوٍّ صحيّ.

أمّا الصيف، فهو حقبة الأناركية حيث يفقد الجميع صبره وتظهر عليه بعض الأنانية، مع انتشار البهجة في معظم الأوقات. مع العلم أنه في لحظات أخرى يكون الجميع أكثر عرضةً للغضب وخيبة الأمل، فيتشاجر الجميع مع بعضه بعضاً، ثم تعود الثقة بينهم مجدّداً ويحتفلون بوجودهم معاً. الصيف يذكّره دائماً بتلك اللحظات الغريبة التي يتوقف فيها الزمن، عندما يتناولون العشاء بصمت كما لو أن فقاعات تجول في أذهانهم حاملة إيّاهم إلى المستقبل، أصواتهم هادئة وحكيمة. يتوق دائماً إلى هذه الإجازات القلقة، لكنه يشعر بالغرابة في هذه السنة بالذات. إذ أنَّ والده قبل شهر من الإجازة، طرح لأول مرة منذ سنين احتمال تبديل مكان قضاء العطلة الصيفيّة، وناقش الموضوع خلال جلسات العشاء في الأسابيع الأخيرة، لكنّ العمّة إيلي أصابها المرض وحسم الأمر: سيذهبون إلى المكان المعتاد.

وفوق هذا كلّه شعر بالإهانة لأن أحداً لم يأخذ رأيه بالموضوع، ثم تحول الاستياء إلى شعورٍ غريبٍ وغير مفهوم، أشبه بخيبة أمل مريرة من والديه،

خصوصاً بعد الجدالات والشجارات التي جرت قبل أسابيع من الإجازة، والتي تصاعدت فيها حدّة النقاش إلى درجة نعت العمّة إيلي فيها بعبارة: "البقرة المريضة". علم تماماً أن هذه الشتيمة لم تكن مجرّد انتقاد للعمة إيلي التي تحبّه بكل صدق، وأن الأمر مهمّ وجديد ضمن النقاشات العائليّة، وأنه أيضاً وببساطة شديدة انتهاك عنيف.

وخلال أجزاء صغيرة من الثانية عبرت رأسه جملة من الأفكار العبقرية التي تصعب مقاومتها، وفي نهاية المطاف لم يستطع تجنب الرغبة العارمة بإطلاق العنان لتعليقه ذاك. فهو يتوق لحدث الشتيمة أكثر من توقه لشتم العمّة إيلي، لذا اقترب من الطاولة وأسند ذراعيه فوقها قائلاً: "لا أفكّر مطلقاً بقضاء الصيف وأنا أعتني ببقرة مريضة".

يذكر أن هذه الكلمات خرجت من فمه كسائلٍ لزج وعذب في آنٍ واحدٍ، وربّما تفاجأ هو شخصيّاً من السهولة التي نطق بها بكلماته. كان ينوي الخوض في مغامرة ما والمراهنة على كل الأشياء. أمّا والده فقد أصدر صوتاً قويّاً ضارباً يده على الطاولة فنهض هو وغادر غرفة الطعام. لكنّ حبكة المشهد هي الأقسى، حيث ذهبت والدته إلى غرفته لتواسيه وتستفهم منه دوافع تصرفه هذا ولتطلب منه أن يعتذر لوالده. ظلّ جالساً على السرير فجلست أمه بجانبه وداعبت عنقه فشعر بخجل شديد ولا إرادي، فنهض على الفور وعاد إلى العشاء وطلب السماح من والده متفادياً النظر إليه ودون أن يعرف ما إذا شعر بالإهانة أم أنه توتّر فحسب، وعندما رفع رأسه رأى والده يحدّق إليه بإمعان ووالدته واقفة إلى جانبه مستغربة.. يجهل تماماً السبب لكنّه غير قادر على رؤيتهما كما تعوّد في السابق طيلة حياته، فهم ببساطة أنهم لم يعودا رموزاً للسلطة بعد الآن، ولم يعد لهما البريق والتوهّج ذاته الذي رآه فيهما عندما كان طفلاً، لم يعودا أيضاً كائنات متفوّقة.. ثمة

شيءٌ ما جعلهما يبدوان باهتين. يكتشف فيهما ملامح زائفة ومبتذلة. لقد ظهرا له في ضوء الواقع الذي لا يرحم كشخصين هشّين مليئين بالخوف والرّغبات المكبوتة.

نسي الجميع الشجار، ما قضّ مضجعه قليلاً فهو قد أصبح عنيداً خلال هذه السنة.

صعدوا بالقطار وذهبوا بمزاج جيّد لقضاء الإجازة.. وعندما وصلوا إلى البيت الذي سيقضون فيه الأوقات المرحة. بدا البيت واسعاً وأشبه بالغابة في الأيّام الأولى، ثم تحوّل الأمر إلى تواتر مزعج بين الذهاب إلى الشاطئ في الصباح، ثم العودة إلى البيت في وقت الغداء، حيث يتأمل أثناء الطريق شجر الصنوبر وكثبان الرمل ويتذكّر أجساد الفتيات اللواتي يبلغن سنّه، إضافةً إلى النساء الكبيرات.

يهبط ليركض يوميّاً على الشاطئ، فهو يعشق الركض بالقرب من البحر.. ويشعر أنه يسيطر على جسده بشكل مطلق ومحكم وكأنه آلة دقيقة الصنع، الركض يحرره من الخجل غير المبرّر الذي يسببه له جسده في بعض الأحيان. ثم يعود إلى مظلّة والديه ليخلع ملابسه ويهبط للسباحة قرب تلك الصخور التي تذهب والدته وأخته إليها للبحث عن السلطعونات. في اليوم الخامس من الإجازة عاد من الركض كالعادة وذهب ليغوص في البحر كما يفعل يوميّاً فشعر بإغراءٍ غريب، حيث غاص في الماء دون أن يأخذ الكثير من الهواء، وقرر بعد ذلك النزول إلى عمق بحوالي الأربعة أمتار نحو صخرةٍ عليها ما يشبه المرجان، وبعد ضربتين أو ثلاثة وصل إلى الصخرة، تمسّك بها جيّداً وقرر أن يظل هناك حابساً نفسه ما استطاع. الصخرة لزجة وسوداء وعندما ثبّت كتفه على الجزء البارز منها لكي لا يطفو نحو السطح أدرك أن الهواء قد نفذ، وأنه لن يستطيع المكوث هناك أكثر من ثلاث أو أربع ثوانٍ.

ثم أحس بأن شيئاً ما انكسر هناك، كما لو أنه سلك المقاومة في الأجهزة الكهربائية، وأنه سيموت إن بقي دون أن يشعر بذلك. فكّر في تلك الثواني القليلة بالماء الأصم الصامت وهو فاتحٌ عينيه، وقاع البحر يبعد حوالي العشرة أمتار والماء شفاف تماماً. ثم نظر إلى أعلى فرأى السطح المضيء، الهواء ينفذ منه فيرى الأشياء بجمال إعجازي و كأنه يسبح في زجاجٍ؛ لأن الماء أضحى ثقيلاً وغامقاً كالزيت. وبعد أن تجاوز عتبة مقاومته التي اعتقد أنها ستكون الحد بين حياته وموته شعر بانفراج غريب ولغزيّ، كما لو أن دمه قد حصل على الأوكسجين من جديد: كم من الوقت مضى؟ لم يكن يملك أية إجابة. لكن هذه النشوة الصغيرة سرعان ما تحوّلت إلى ضعف فوريّ وإحساس بأن كل شيء سيتلحّف بالبياض أو أن القاع البحري الغامق ذاك سيتوهّج بضوءٍ شرّيرٍ فجأة. قرر سحب ظهره من الصخرة البارزة وصعد بضربة واحدة مع ما تبقّى له من قوّة نحو سطح الماء. وعندما وصل تنفّس بذعر وغضب دون أن يدرك حقيقة ما يشعر به كامل جسده من رأسه إلى أخمص قدميه.. هل هو سعادة أم ألم؟؟ ظنّ بأنه سيفقد الوعي.. ولم يعرف كيف استطاع الوصول إلى السطح، ثم تلاشى بعدها ليفتح عينيه ثانية في مستوصف الصليب الأحمر، فيرى والده واقفاً بجانبه.

"لقد أرعبتنا يا بني" قال والده بوجه مزدحم بالقلق وبخوف لا يمكن تصوّره، ثم داعب وجهه الشاحب وتراجع بعدها بيد مرتجفة، وقال: "أمك وأختك تنتظران في الخارج.. كل شيء على ما يرام.. من حسن حظّك أن ذلك الرجل قد رآك".

"مانويل... أُدعى مانويل" قال شاب رياضي ثلاثيني العمر واقف بالقرب من والده، وهو يبدو راضياً تماماً فأجابه الأب: "نعم مانويل.. عذراً".

كان مانويل يشعر بضرورة ما ليطلق أي تعليق مناسب، لاسيما وأن أحداً لم يقدّم له الشكر. فقرّر أن يشكر نفسه ذهنيّاً، ثم يجيب بصوت مرتفع: "لم يكن الأمر مهمّاً.. المهم الآن أنك بخير".

وقد تبع هذا المشهد - بالطبع - مساءٌ حزين... ما الذي حدث بالضبط؟؟ كيف يمكن تسميته بدقّة؟؟؟ يتنفس بصعوبة ويشعر بضعف شديد. أخته أنيتا ظهرت متفهمة للغاية وكأنها في هذا المساء كانت هي الأكبر سنّاً.

استلقى على الأرجوحة الموجودة في الممر يراقبها وهي تمر في كل ربع ساعة لتسأله ما إذا كان يريد الماء أو أي شيءٍ آخر، ترتدي ثوباً صيفيّاً أحمر يظهر ساقيها الصغيرتين كالقصب.

وفي غضون هذه الساعات يبدو أنه شعر بفقدان المنطق في تتابع المشاعر، ينتابه شعور بالنعاس لكنّ إحساساً بالمضايقة لا يبارحه ويمنعه من التركيز على الأشياء، رغم أنه لم يتوقّف عن التفكير بالأصوات والموسيقا، لديه إحساس ملموس بالخوف والتهديد الخارجي المتعلّق بها أوشك على فعله بنفسه، الأمر الذي لم يستطع فهمه بعد.

والداه حاولا تسليته طوال المساء، طالبين منه أن يبحث في اليوم التالي عن أصدقائه الذين كانوا يأتون صيفاً في السنين الماضية. بدا عليهم بشكل واضح عدم اقتناعهم بأن ما حدث على الشاطئ اليوم كان مجرّد حادثة عرضية، لاسيما والده الذي لم يكن ليدعه بمفرده حتّى دقيقة واحدة منذ الآن: "فلنذهب معاً يوم غد، إذا شئت طبعاً!!"

ثم والدته: "لكن كيف حدث ذلك؟؟ هل شعرت بالدوخة هناك؟ أهذا هو السبب؟؟ يبدو لي أنه علينا اصطحابك إلى الطبيب.. أنت لم تدخ قط في حياتك".

فجأة امتلأت عينا أنيتا بالدموع بعد أن حبست الطعام في فمها وهي تمتص كل العذاب إلى حدّ يدعو للغرابة، ثم انفجرت عندما ذكرت والدتها الطبيب بالبكاء والشهيق كأن أحداً ما يهزّها ويدفعها بقوة، اقتربت منه بخطىً صغيرة بانتظار أن يعانقها إلّا أن أمها كانت هي من عانقتها: "كفى أيتها الصغيرة، هل ستبكين الآن كالحمقاء؟ ألا ترين أنه بحال جيدة؟؟".

إنه الوحيد الذي انتبه إلى أن أنيتا تضايقت من أمر واحد، وهو نعت أمها لها بالحمقاء، وكيف أن ما شعرت به لم يكن القلق والألم، إنما جرح في الكرامة.. نعم جرحٌ في كرامة فتاة صغيرة وحساسة.

"أنا لست حمقاء"، قالت أنيتا.

هناك أمر غريب بينهم في كلّ مرّة يخرجون فيها لقضاء الإجازة الصّيفية، نوع من التوق العارم ليكونوا مقسمين، مبعثرين فيما بينهم، كلّ مشغول بمهامه الاعتيادية كضربٍ من الروتين المريح، الذي يتخلله أحياناً حقنٌ من مشاريع جديدة ومثيرة.

"هل تحبون التزلج وركوب الأمواج؟" سأل والده.

بدا السؤال كأنه صوت أبيض قليل المضامين.. أو كغرفٍ لم تعد صالحةٍ للعيش فيها. كان الجميع قد طوّر خلال الشهر الأخير طريقة للتكيّف، كسلٌ لطيف وحميم. أمرٌ أشبه بضجيجٍ خافتٍ من همسٍ رقيق. كأن هذا الموقف مكررٌ منذ الأزل، وفي الوقت نفسه جديد كلياً.

أشجار الصنوبر مثلاً ظهرت له من شرفة المنزل كما لم يرها قط، وكذلك الكثبان التي تغطّي الشاطئ. فحياة الشتاء بعيدة وبالكاد يستطيع تذكرها. تراءى له الصيف فجأة كظاهرة صوتية فحسب، اهتزازاتٌ متقطّعة في الهواء تؤدّي إلى طريقةٍ خاصّةٍ في التنفس. أو ذلك الودّ الثقيل في حركات تناول الطّعام الذي لم يدع لأحدٍ الفرصة في إنهاء أيٍّ منها بارتياح.

إذا وقف لحظةً مع نفسه وفكّر في فصول الصيف الماضية جمعاء، سيكتشف لا محالة أن هذا الصيف مختلف، وأنّ ثمّة ما يجعل منه نقطةَ تحولٍ بين ما كان وما سيكون.

حتّىٰ اليوم، لم يشعر أن له هذا الصيف مختلفاً أو مميّزاً، لكنّه أصبح كذلك منذ الآن، بل إنّه آخذ بالتسارع بهذا الاتّجاه علىٰ نحو فريد...

اعتاد أن يستيقظ في الصباح الباكر دائماً، وفعل ذلك في اليوم التالي للحادثة. حين استيقظ في الساعة السابعة بعد أن قرّر والده اصطحابه مرغماً لرؤية من زعم أنّهم أصدقاء الصيف. يومها تناول إفطاره وحيداً في المطبخ، ثم راح يجول في أرجاء البيت. استرق إحدىٰ سجائر أبيه وخرج إلىٰ الممر الخارجي ليدخّنها، التدخين ليس أحد هواياته إلّا أنه كان معجباً بأداء دور المدخّن. يفعل ذلك خلسة وبمفرده لئلّا يعتقد الآخرون أنه مبتذل.. غرفة والديه تطل علىٰ هذا الممر الخارجي، وقد ناما تاركين النافذة مفتوحة، أطلّ عليهما فوجدهما راقدين علىٰ السرير كل في جهة، والده ينام علىٰ ظهره مرتدياً سرواله الدّاخلي، وأمّه ملتفة بثوب نومها الصيفي الذي يتداخل بين قدميها. لم تكن الصورة جديدة عليه فهو قد رآهما مراراً بهذه الوضعية، لكنّها المرّة الأولىٰ التي ظلّ بها يحدّق إليهما لبرهة طويلة دون أن يبعد نظره باستحياء.. تبيّن له أن أبويه كانا ينتفخان ليلاً بشكل ملحوظ، وأن جسديهما يغدوان أثقل عنهما في النهار، ويبدوان جافّين أكثر كأن شيئاً ما يمتص السوائل فيهما. وفي الواقع، فإن المشهد بحدّ ذاته صعبٌ عليه لدرجة دفعته إلىٰ الابتعاد، لكنّه ظنّ أن عليه الانتظار فهو الآن يشهد حدثاً خاصّاً وحميماً.. حدث يوميٌّ لا ينبغي له أن يراقبه بهذه العناية.. إنهما أبيض وأسمن من المعتاد، كأنهما دميتين قطنيّتين عالقتين في الزمن، ومستلقيتين علىٰ السرير بعد أن ضربتا مراراً بالجدران وبالسقف.

ظهرت على ركبتي والدته عروق زرقاء وتشققات، أمّا الجلد في بطن والده فهو هشّ ورقيق كجلد المسنّين أو كجلد دبٍّ هرم، والداه يتنفّسان بعمق كأن شيئاً ما قد أنهكهما طوال الليل، أو ربّما طوال حياتهما.

وبعد أن تناولوا الفطور واقترح والده الذهاب إلى النادّي، نظر إلى أبيه بعناية من أسفل، فوجده وقوراً كالعادة وقد عاد إلى حجمه الطبيعي، رشيقٌ ورجولي.

لطالما أعجب بوالده، لكنّه اكتشف للتو – بعد أن تمعّن بما رآه صباحاً – أن والده ككل الناس، تنخفض ثقته بنفسه ويقلق ويصبح حسّاساً ومتحيّزاً وغير صبور في بعض الأحيان، وأن مظهره الواثق ذاك لم يكن إلّا ثمرةً للادّعاء.. ادّعاءٌ محترفٌ أشبه بعادةٍ أو بخلل لا يمكن إصلاحه.

"هل كان لك عشيقات قبل زواجك بأمّي؟؟"

تلفّت إليه أبوه مستمتعاً: "ما هذا السؤال؟"

"إنّه الفضول على ما أعتقد"

ركل قدم الطاولة برجله وهو يشعر بالندم لإثارة هذا الحديث، فتوتّر الاثنان؛ لأنهما لا يثقان ببعضهما كثيراً، وهذا ما ينغّص عليهما الحياة.

"كان لي العديد من التجارب، إحداها كانت لمدّة طويلة على ما أفترض... كانت صديقة عمّتك إيلي"

"ولماذا انفصلتما؟"

"لأنني تعرّفت إلى والدتك... ولكي تولدا أنتما!! "

مبتسماً كما لو أنه كان عليه الاعتذار عمّا فرّ منه من مشاعر في جملته الأخيرة. في حين أن ابتسامته لم تكن تعبّر في الواقع عن خصوصيّة ما.. فهو رجلٌ عاطفيٌّ ومرح بكل ما تعني الكلمة من سطحيّة، ولكنّه كان سكوتاً صامتاً كالماء في الأعماق السحيقة، يظهر الودّ بشكل قليل ومفاجئ..

يصعب أن يوصف بالتفاؤل. إنّه أشبه بالأب المثالي الذي حذفت منه في الثواني الأخيرة خصائصُ حاسمة، فقد كان ينقصه أمر ما.

"سأمرّ لاصطحابك وقت الغداء، لديك الوقت لرؤية الجميع"

"حسناً"

لم يدخل النادي عندما وصلا، كان يراقب أباه إلى أن ابتعد باتجاه الشاطئ، فتوجّه نحو السّاقية.

أمّا عن أصدقاء الصيف، فلم تكن ذاكرته لتسعفه بما هو أكثر من إحساسٍ دفينٍ بالإهانة مصحوب بمللٍ متعب.

فهم في الرابعة عشر من العمر ينتمون إلى عوائل مرموقة في مدينتهم، يتصرّفون وكأنهم أمراء صغار، طاعونٌ من أفاعٍ خضراء لّماعةٍ تملأ تلك القرية الساحلية صيفاً.

لم يعد يهتم لأمرهم في هذا الصيف، وينتابه نحوهم خجلٌ ممزوجٌ بالشعور بالدّونية. لجميعهم أشكال جميلة، شقرٌ يتباهون ببذخٍ منقطع النظير ومزعج، لدرجة كانت تشعره بأنّ وجوده معهم غير مبرّر، يحومون حوله كالأقمار الاصطناعية على أمل أن يعجبهم في لحظةٍ ما.

سلوكه معهم سلبي، فهم يعتقدون أن العالم قد صنع لخدمتهم، وأنّ عليهم أن يأخذوا منه ما يشاؤون، متى رغبوا. لكن ما يغيظه فعلاً أنّه في يوم من الأيام أعجب بهم وأراد الانتماء إلى مجموعتهم. بدا كفتاةٍ حاقدةٍ تغمرها رغبة عارمة بالانتقام... انتقام مرٌّ وحيوي، شعر به في معدته، كالذي يشعر بالخجل من أنّه أحبّ شخصاً ما.

هناك سبب دفعه للذهاب إلى الساقية؛ لأنه ممنوع من الذهاب إلى هناك، فالساقية تُعدّ المكان المحظور.. مدخل القرية الذي يصل بينها وبين طريق السفر، البيوت هناك منخفضة ومربّعة كعلب الكرتون بجانبها حاويات

كبيرة. تذكّر كلام والدته: "عليهم أن يطردوا جميع الناس من هنا". كان يتذكّر هذه الصّور، بعضها بدا ثابتاً والبعض الآخر راح يضطرب كأنه سائلٌ متحرك: رجال يقفون أمام الأبواب يتحدثون، وأولاد في كل مكان.. وفي الوسط شاحناتٌ متهالكةٌ.

مشهدٌ متعبٌ دون أن يكون فيه أي شيءٍ عنيف بعينه.

"وأين سيذهب هؤلاء الناس؟؟ إنهم لا يسبّبون الأذية لأحد!!" أجاب والده.

يقال أن جميع المخدّرات تأتي من هذا الحي، لكنّ المخدرات عالمٌ بعيدٌ بحدّ ذاته. هي حدث يصعب استقراؤه... إنّه كعامودٍ عجيبٍ يهبط على الأفقيّة المسحوقة لهذه البيوت، كأنّما هي أمطارٌ حامضيّةٌ هطلت عليهم من السماء.

بدأ حرُّ الصباح يتحوّل إلى نسمات عليلة في طريقه نحو السّاقية، وعند عبوره للسهل الذي يفصل بين الأبنية الإسمنتية وهذه البيوت تذكّر على الفور كلام العمّة إيلي في الصيف الماضي.. تحدّثت عن رجلٍ ميتٍ وُجدتْ جثته في ذات المكان، إنّه سهلٌ صغيرٌ يحوي أشجاراً من الصنوبر شبيهة بتلك التي تفصل بيتهم عن شاطئ البحر، إلّا أنها هنا أقصر وأغزر.. وتبدو ملتوية ومتشقّقة، كأن قوة ما في باطن الأرض تمنعها من النمو.

لا يعرف ماذا سيجد هناك، فهو يحاول ترجمة ما يشعر به إلى كلمات، لكنّه كان يجيد دائماً الإحساس أكثر من التفكير.

"رجلٌ ميت" صرخ بصوتٍ عالٍ... لم يحدث شيء!

وقف على بعد مئتي متر قبل الوصول إلى منازلهم حين رآهم قادمين باتجاه القرية.. كان يدرك أنه سيلاقيهم في الطريق.

يبدون من بعيد أكبر سناً مما تبين لاحقاً، هم أربعة، اثنان منهم لا يرتدون القمصان، وجميعهم يرتدون أثواب سباحةٍ طويلة.

فكّر على الفور باحتمال عقلاني، لو أنّه مثلاً بدأ بالركض الآن نحو الأبنية الإسمنتية، فإنّه سيصل قبل أن يصلوا هم إليه، لكنّه عوض ذلك التقط حجراً بحجم يده من الأرض وتقدّم نحوهم. وعندما أصبح على بعد عشرين مترٍ منهم لاحظ أنهم يعلّقون فيما بينهم، ولمّا صاروا على بعد خمسة أمتار بالكاد اعترضوا طريقه. لم يتفحّص وجوههم جيّداً، فهو يرى السمرة تشع منهم فحسب. ليس أياً منهم أقوى منه منفصلاً، هم بعمره تقريباً لكنّهم رغم ذلك يبدون أكبر منه بقليل.

"إلى أين أيتها الأميرة؟"

"إنّني أتمشّى"

"وحيدة؟"

لم يكن يعرف الكثير عن ردّات فعل الآخرين العنيفة، فالعنف بالنسبة له أشبه برياح تعبر رأسه، لها خصائص الهواء، جافّة وكهربائيّة، يبحث عنها أحياناً دون قصد، وأحياناً أخرى يشعر بها في كعبي قدميه تصعد تدريجياً لتصعقه فيما بعد كغريزةٍ واثقة وصارمة، لتتوتر بعدها جميع عضلات جسمه، ويتنج عن ذلك قرارٌ عاطفيٌّ لا رجعة عنه (كان قد خاض في حياته ثلاثة شجارات حلّت بلمح البرق) فوفقاً لتطوّره كان العنف شيئاً بطيء الطابع، ربح وخسر هذه الشجارات برّفة عين، مع بعض التوتر والحيرة.

ثم عاود النظر في وجوههم فوجدهم أكثر شراسة من ذي قبل، أحسّ بأن فرصه قليلة وتلاشت ثقته بنفسه، لكنّه تحمّس لأنهم لم يهاجموه بعد.

"إنّني أحمل حجراً، من سيقترب منّي أولاً سأكسر أنفه، بعدها باستطاعتكم قتلي إن شئتم، لكنّ أنفاً ما سيكسر مقابل جثّتي"

"اكسر أنف هذا، فهو مكسور من قبل!" قال أحدهم
"ولم لا يكسر أنفك أنت؟؟؟" أجابه آخر

ساد صمت قصير، ثم فكّر في أنه إذا لم تحسم القضيّة في الحال، لن يكون أمامه حلّ آخر. لقد تحلّوا بالهدوء في حين أنّه هو كان في توتّر متزايد، وبدأ الخوف يتسرّب إليه فأخذت إحدى قدميه بالارتجاف، فثبّتها بقوة إلى الأرض لإخفاء الرّعشة. وبالفعل فإن أنف أحدهم يغوص إلى الداخل قليلاً، وهو أقواهم بنيةً، انخفض هذا الأخير والتقط حجراً بنفس الحجم: " حسناً أيتها الأميرة، ها أنا أملك حجراً الآن.. ما رأيك لو حطّمت أنا أنفك أو لاً؟"

صاح أحدهم: "قميصك يعجبني، هل تهديني إيّاه؟ "
"لا"
"هذه أنانيّة!! لا تكن بهذه الأنانيّة!"

لاحظ أنّهم يتقدّمون أكثر، و ذهنه خالٍ تماماً من الأفكار، كانت يداه ترتجفان بقوّة، وجهه شاحب، ومحمر... ويزداد احمراراً.

في لحظةٍ ما شعر بالفخر من نفسه، لكنّ خوفه ذهب به بعيداً إلى حدّ جعله يعتقد أن ردّات فعله يمكن أن تخرج عن السيطرة في أي لحظة. ظنّ أن عليه أن يبادر بالضرب، ثم لن يهم كثيراً ما يمكن أن يحدث بعدها. تقدّم خطوةً واحدةً لكنّه تردّد فدفع به أقواهم بعنف شديد رامياً به أرضاً، نهض بقفزة واحدة ملتقطاً قدم الشاب الآخر، وموقعاً إيّاه على الأرض، ثم ثبّته قبل أن يسمع أحدهم يقول: "دعوه لنرى ماذا سيفعل!"

فانقض على عنق الشاب الذي يثبّته بقوّة، وأدرك أن البقيّة سيهاجمونه لاحقاً، نظر إلى وجهه الأحمر وهو يبصق ويشخر، كان قبيحاً بشكل غامض، شفته العلوية غريبة كشقّ كبير.

أفلته شيئاً فشيئاً دون قناعة تامّة، ووقف على قدميه وهو يتصبّب عرقاً، ثم نظر نحوهم كأنما يقول "من التالي؟" لقد أدرك أنه لن يستطيع صرع أقواهم جسداً الذي ضحك بسخريّة، ثم علّق: "حسناً، حسناً ليس الأمر سيئاً إذاً!! اسمع"

"ماذا؟"

"لم لا تأتي معنا؟"

"إلى أين؟"

"إلى الرصيف البحري للسباحة"

وفي لحظة من الشك وعدم الثّقة، انفجر بالضحك كما لو أنهم أطلقوا عليه النيران. رأى الجميع يضحكون باستثناء الشاب الذي ثبته بالأرض، والذي كان يداعب عنقه بانزعاج. العنف أيضاً لعبةٌ ذهنيّةٌ ومحرّكٌ بدوره، المكبس يولّد الشرارة وبعد الانفجار يتحرّر الهواء السّاخن المُشبع.

"حسناً... ليس لدي أي شيءٍ لأفعله الآن" أجابهم وهو يفكّر مع نفسه، إذاً هم من كانوا يسبحون في المرفأ قرب الرصيف البحري. رآهم مراراً من بعيد في أسبوعه الأول ذاك وأراد الانضمام إليهم، إلّا أنّه في اللحظات الأخيرة شعر بفوراتٍ من الخجل، إذ لطالما نقصته الجرأة والحسم للقيام بالأشياء، كما لو أن ذكاءه كان أسرع من رغباته، ليقدم له النتائج الخاصة. لقد تميّز بقدرته على العيش في التوتّر و الشدائد، وبقدرته على التصرف بحكمة في اللحظات التي تحتاج السرعة والمقدرات. ولكن دون أن يكون قادراً على التعامل مع المواقف التي تحتاج الإستراتيجية البعيدة، فتلك تدفعه إلى التسرّع والقلق.

"ما هي أسماؤكم؟"

"بابلو"

"تيخاس"

"ريفيرو"

وبما أن الرابع لم يجب فأجاب عنه أحدهم: "وهذا يدعى ماركوس"

شعر أن هنالك ما هو مختلف في أصواتهم، فلكل منها خاصيّة معينة، بينما يبدو كل واحد منهم متفرّداً عن الآخرين، مع أن شيئاً ما يجمعهم معاً، ملامحهم الجميلة تنبع من الأسى والغضب. ماركوس: هزيلٌ وأشقر، شفته العلويّة تعطيه هيئة سجينٍ سابقٍ للوهلة الأولى، يمشي بقفزات صغيرة وحذرة، كما لو أن عطباً ما أصابه جرّاء توتّره العالي.

في حين أنّ بابلو وتيخاس كانا أثخن من ماركوس، مكسيّين باللحم ويشبهان بعضهما، ما يدفع للظنّ بأنهما أخوان، مرحان وهادئان أكثر من ريفيرو وسيم المظهر وصاحب البنية القويّة، والذي بدا كنسخةٍ معدّلةٍ عن رفاقه. عمرهم جميعاً لا يتجاوز الرابعة عشرة. أي بعمره هو، لكنّ هيئاتهم تجعلهم يبدون أكبر منه، تراءوا له كأربع أحافير غريبة، كغريزة البقاء بحدّ ذاتها، كأن فيهم ما يدفع إلى فقدان الأمل و العذاب.

فقد جعلتهم الحياة أكثر واقعيّة، حتّى ملامحهم الجنسية تطوّرت بشكلٍ ملحوظٍ، ونشأت بينهم علاقة فريدة.. إنهم متفاهمون كفريق من الذئاب في رحلة صيد.

"لم تقولي لنا أيتها الأميرة... ما هو اسمك؟"

"توماس"

"توماس؟" ردّد ريفيرو

"أجل، نعم توماس!!"

"وهل اختبرتَ فحولتك مع فتاةٍ من قبل يا توماس؟"

هرب بعينيه على الفور، وضغط على فكيه بقوة وهو يعود إلى ريفيرو، بنظرته التي كان قد طوّرها بإغماض جفنيه قليلاً محاولاً استجماع شجاعته بعد أن وصلوا تقريباً إلى الرصيف البحري.

"نعم، لمرّة واحدة!!"

"مرةٌ واحدة؟"

"أجل"

فجأة شعر بيدٍ قويةٍ تمسك عنقه من الخلف، وبالطبع كانت يد ريفيرو نفسه الذي شدّ على عنقه بقوة وعنف وهمس في أذنه: "لا تكذب عليّ أيها الغبي... فأنا أعرف الكاذب جيّداً" ثم ابتسم له بثقة.

شعر بسعادة صامتة، لاسيما أن أمامه خمسة عشر يوماً من الإجازة، بعد أن تحوّل إلى شابٍ جادٍ وناضج في المنزل وبدأ يفهم استقلاليّته أكثر.

أصبح يرى والديه وأنيتا كأنهم شخصيّات بعيدة ومهيِّجة، توقّف عن التفاعل معهم ولو بابتسامة، فعندما يتواجد معهم يجلس كالغائب:

"ما بك في هذا الصيف؟؟ أنت لا تُحتمل!" قالت أمّه.

لم يكن يبالي، يدّعي الجلوس بجانبها، ثم يغادر عندما تسنح له الفرصة دون شروحٍ أو تبريرات. عندما يسأل يجيب فقط: "كنت في النادي".

لكنّه بالتأكيد لم يكن يذهب إلى هناك، وهذا ما حرّك لديه أحاسيس غريبة، سمّاها "السعادة"، كحقل مغناطيسيٍّ يستطيع هو وحده إطلاقه في الفضاء.

ستة أيامٍ مضت منذ تعرّف إلى الصبية، وهو يذهب كل مساء للقائهم دون انقطاع. صار يعرفهم أكثر، ونمت بينهم حتى الروابط الفيزيولوجية، لدرجة أنهم راحوا يطلعون بعضهم على القيل من أسرارهم.

عاشوا في عالمٍ ناضجٍ ومظلّل رغم أنه في بعض الأحيان كانت تفلت منهم تصرّفات طفولية، بمعنىٰ أنهم لم يستطيعوا أن يكونوا كباراً إلّا في أوقاتٍ معيّنة. شعر أنه يتميّز عنهم بأمر واحدٍ، هو وعيه بالمستقبل الذي لم يكونوا هم علىٰ دراية به، فقد كان حاضرهم منهكاً ومكرّراً.

معهم استطاع اكتشاف ألوان وصخب ذلك الشارع التجاري الوحيد في القرية. أمّا هم، فقد كانوا يعيشون هناك في الشتاء أيضاً، وأكّدوا له أن روحاً لا تطأ هذا المكان طوال الشتاء. الأمر الذي كان صعب التصديق في تلك اللحظة.

باستطاعتهم سرقة الملابس والحلي بطبيعية مدهشة، وأن يتخلّصوا من الأسماك المقلية التي يسرقونها من الحانات بترف وقلّة تقدير.

السرقة سهلة، ويقومون بها بتململ، وهذا بالتحديد ما كان يجعل من المشهد يبدو رائعاً له، حتّىٰ أنه قام بسرقة بعض الأشياء من المتاجر الصغيرة بتوتّر شديد، فهو يعشق التملّك وتراوده مشاعر الاستحواذ المطلق علىٰ كلّ ما يرغب. أمّا هم فيسرقون دون انحياز معيّن.. بشكل غير عقلاني ملؤه الثقة، أشياء عديمة القيمة دون أن يتكلفوا عناء ادّعاء رغبتهم بشراء ما يسرقون. وأحياناً، دون أن يضطروا لإخفاء المسروقات لدىٰ خروجهم من المتجر. حركاتهم مفتوحة وعلنيّة، سرق بابلو مثلاً في بادئ الأمر أقراطاً بكل عفوية، حتّىٰ ظنّ الجميع أنه دفع ثمنها لشدّة الارتياح الذي خرج به من هناك. دون أن يحتفل بإنجازه حتىٰ، بل اكتفىٰ بالتصريح: "الحلق من نصيب موني".

"افعل ما تشاء لكنّ هذه الفتاة لن تحبّك أبداً"

"سنرىٰ"

وكانوا عندما يسرقون يتحدّثون عن الجنس، بطريقة لم تكن مألوفة عنده. ليس لأنهم وصلوا إلى سنّ البلوغ قبله، إذ كان لديه في المدينة أصدقاءٌ سبقوه في ذلك، لكنّهم ليسوا كهؤلاء.

حتّى هو كان على وشك أن يفقد عذريّته منذ بضعة أشهر، لكنّه ضيّع الفرصة بسبب عدم توفّر الحماس الكافي من جهة، ولأن الفتاة لم تكن أمراً عظيماً من جهةٍ أخرى.

ماركوس، بابلو، تيخاس، وريفيرو يتحدّثون عن الجنس بشكل محايد رغم أنه كان حديثاً مستمرّاً وصريحاً، لكنّه كان يتفادى بعض المناحي. الفتيات اللاتي مارسن معهم الجنس كنّ يقطنّ في القرية نفسها وأحياناً في البيوت نفسها. لم تكن أحاديثهم مخادعة كما لم تخلُ من التفاصيل المخجلة والدنيئة. المضاجعة بالنسبة لهم حدثٌ لا يضاهيه شيء، فهو أساسي وموجودٌ فعلاً في منطق الاحتمالات، بل إنّه سعي عنيف دون عنوان، لا ينفك يمضي حتّى يعود إلى الإلحاح من جديد.

الجنس ليس عاطفيّاً في كلامهم، فهم لا يتحدّثون عن الحبّ أو عن فتاة معيّنة، يكلمّون بعضهم فقط عن المضاجعة أو عن الرّغبة بالمضاجعة، أو مثلاً عن آخر مرّة قاموا فيها بالمضاجعة، وكيف أن موني خبيرة في الأمر، وكيف تتصرّف دولي في السرير، وعن فراني في السيارة؛ (ووالدة فراني، أضاف تيخاس). كان الأمر العاطفيّ الوحيد الذي يجمع بين الفتيات هو حرف الياء في نهاية أسمائهنّ، فيما عدا ذلك تجمعهنّ مغامرات المضاجعة، دون أدنى نوع من الدراما أو الاضطرار للكذب واختلاق الأحداث. ببساطة لأنهم لم يكونوا كما كان هو وأصدقاؤه في المدينة عالقين في شبكات التبرير العاطفي، الادّعاء والتزوير، كانوا أكثر حديّة وأنبل، على الأقل كما رآهم هو.

بدأ يشعر كما لو أنه كان مخدوعاً طوال حياته، أقرب إلى استبصار غريبٍ راوده. فهو يدرك في قرارة نفسه أنه لن يصبح مثلهم، مثل ماركوس وبابلو وتيخاس وريفيرو. إلّا أن سعادةً انتابته من أنه يعجبهم وأنهم يرحبون به بينهم بفخر. يسخرون منه قليلاً لكن دونما شراسة، شعر أنه جسرٌ بين عالمين. أمّا هم، فأحسّوا بأنهم كادحون قد تسنّى لهم فجأة وفي ليلة مستحيلة أن يضاجعوا ملكة جمال.

"إنها نعمة من نعم الحياة"، قالت العمّة إيلي

"أيُّ نعمة؟"، سأل أبوه

"برج إيفيل، لا أريد أن أموت قبل رؤية برج إيفيل"

"بربّك إيلي... وكأنّك ستموتين غداً"

"ومن يدري؟ ربّما أموت غداً... وأنا لم أسافر في حياتي"

قالت العمّة إيلي جملتها الأولى بسلطويّة مرعبة، ثم نطقت بالجملة الثانية كأنّها أرادت إخماد زلزال جملتها الأولى. وبعد عشر دقائق وعلى مائدة العشاء ذاتها:

"كنت لأكون أسعد لو تزوجت بتركيٍّ"

وبعدها بقليل، وحين تجاذبوا أطراف الحديث عن ماء المحيط.. وكيف أنه في هذا الصيف أدفأ من ذي قبل: "إن أحداً لم يحبّني بحق في كلّ حياتي"

ولّد كلامها صمتاً مطبقاً كسره والده: "ما الذي تقولينه إيلي؟"

شيءٌ ما تغير في العمّة إيلي هذا الصيف، وكان واضحاً في العشاء هذا ذاته أنها صلبة كما لم تكن في حياتها، كأنّها تريد الإفصاح عن الكثير من مكنوناتها. إحباطٌ ومهامٌ غير منجزة، أشياء مختصرة وقليلة المعنى محبوسة في مستودع هائل الحجم كجسدها.

"لديكِ عائلة وعمل في المدينة، ماذا تعرفين عن الحياة في القرىٰ؟؟ أنت لا تعرفين شيئاً.. هذه القرية هي عبارة عن قبر"

التفتت إلىٰ والده وإليهم جميعاً بنظرة هادئة كما لو كانت تقول: (لن يفهمني أحد): "أنا كنت جميلةً جدّاً... هل تذكر؟"

"بالطبع أذكر ذلك"

"لقد كنت جميلة... كم من الوقت؟ عشر سنين؟ كان عليّ ان أستغل هذه السنوات، أظن أن الحياة تعطي فرصاً واحتمالات عديدة.. هناك خيار (أشارت بإصبعها الثخين)، وهنالك خيار آخر (وأشارت بيدها الثانية في الاتجاه المعاكس). ولكنّ الخيار الثالث هو المفقود.. نحن دائماً نفعل ما نريد.. لكننا لا نفعل أبداً ما أردناه في الماضي، وهكذا فإنّنا نفقد مهاراتنا"

وبعد أن لملم والداه الصحون ووضعاها في المطبخ، سمع والدته تقول لأبيه: "أختك تهذي.. ما الذي يجري؟"

"لا أدري، فهي علىٰ هذه الحال منذ أن وصلنا.. لقد قلتها لك بالأمس" أجاب والده وهو قلق.

إنه يخرج في كلّ مساء تقريباً دون أن ينتبه إلىٰ أنهم يتحدّثون في البيت طوال الوقت عن الموضوع، وكان من الواضح أنها لم تكن علىٰ ما يرام، وعندما غادرت العشاء طلب والده منه مرافقتها إلىٰ منزلها، ولمّا كان خارجاً من البيت قرّر أن يقبّل والده وأن يهمس في أذنه بتهذيب:

"لست جيّداً مع المرضى"

ثم التفت إلىٰ أنيتا وقال لها: "لم ترعبك العمّة إيلي.. أليس كذلك؟"

أجابته أنيتا عبر "لا" فوريّة ونظرت إليه بعيون كالدبابيس، حيث أنه من المستحيل معرفة ما يجول في رأسها عندما تنظر هكذا.

العمّة إيلي تعيش في النقطة المقابلة من القرية تقريباً، في المنازل الأخيرة قبل الوصول إلى الساقية. ولم يكن هناك الكثير من الناس في الشارع؛ لأنه يوم الأحد، وقد تأخروا في العشاء فحلّ الليل وتأخّر الوقت.

لاحظ أن رائحة حلوة تفوح منها كرائحة القرفة، وتذكّر رائحة منزلها، والأطعمة الرخيصة في ذلك البيت الصغير الذي عاشت فيه مع زوجها لخمسة عشر عاماً قبل وفاته. حيث أدار سويّة وبنجاحٍ متجراً لبيع السمك، حتّى أنهما وصلا لامتلاك أسطولٍ من أربعة قوارب للصيد، فقدا منها قاربين في عرض البحر، ما دفع عوائل الصيادين الذين توفّوا على متنيهما إلى مقاضاتهما لعدم توفّر وسائل الأمان فيهما. وأدّى ذلك إلى خسارة كل ما جمعناه خلال عشرة أعوامٍ من العمل. ثم احترق أحد القوارب المتبقّية أثناء محاولة إصلاحه، ولم يبقَ سوى قاربٍ واحدٍ لم يسمح لهما بمتابعة العمل. إلى أن اضطرت العمّة إيلي بعد وفاة زوجها، إلى بيع القارب الأخير، الذي يُدعى:... (الملكة بيبا ٢).

تذكّر صورةً فوتوغرافيّة للقارب نفسه ظهر فيها مع أنيتا أخته التي كانت رضيعة، تذكّر أيضاً زوج عمّته في صورةٍ حادّة، حيث جلس الأخير القرفصاء بالقرب منه في إحدى الأمسيات وقال له:

"انظر إلى هذا، أنا متأكّد أنّك لم ترَ شيئاً مماثلاً في حياتك "

أخرج من جيبه حزمة كبيرة من النقود ووضعها في يده:

"أمسك بها يا رجل.. ما بك؟ إنّها لن تعضّك"

تذكّر على الفور كيف كانت الحزمة مقلقة وثقيلة، كوزن طائرٍ مريض.

"لم أعد أريد الذهاب إلى الطبيب" قالت العمّة إيلي في الطريق إلى منزلها. "ما الذي سيستطيع فعله لي؟"

"لا أدري، عمّتي"

"انظر إليَّ جيّداً، أنا امرأة عادية، لقد تحوّلت إلى امرأةٍ عادية.. وهذا ما لن أسامح نفسي عليه قط!! أصبحت ببساطة شديدة امرأةً عاديّة. عليك أن لا تتحوّل إلى رجلٍ عاديّ"

"حسناً"

تأخّر الوقت كثيراً، وازداد الحرّ في هذه الليلة بشكل مزعج، ومع اقترابهم من الساقية هبّت ريح خفيفة جعلت القوارب المرساة هناك تتوازن مع بعضها البعض بمشهد رائع، فسمعا أصوات البكرات المربوطة بتلك القوارب وهي تصدر أصواتاً رقيقة، تأكد من أنه سيتذكّر بوضوح هذه الصورة في المستقبل، هذه الليلة بالتحديد وهذه اللحظة بالذّات: العمّة إيلي تصرّح أنّها شخصٌ عادي، والليل الذي يجعل مرضها واضحاً وأبيضَ، وكيف أن رأسها ينحني نحو الخلف كأنها هي الأخرى تتأثّر بنسمات الهواء. هناك أيضاً ما أثار فضوله: بدت عمّته أصغر حجماً بالرّغم من سمنتها. صغيرة وهشّة كما لو أن حياتها ترتجف في أعماقها.

أكملا السير بهدوء، ولم يكملا الكلام حتّى وصلا تقريباً إلى البيت:

"وماذا عنك أنت؟ إنّ عيونكَ تلمع باستمرار!! هل يحدث معك شيءٌ معيّن؟"

"لا شيء يحدث معي!"

"لكنّ عيونك تبوح بأشياء أخرى، تبدو مختلفاً"

لم يجب، إنّه لم يرَ العمّة إيلي في حياته بهذا الودّ. وفي الواقع كانت هي من برقت عيونها وبدت متغيّرةً ومتحوّلةَ الصّفات.

"إنّك نسخة عن أبيك حين كان في سنّك"

"أعرف ذلك". كلّما رأى صور والده شابّاً أحسّ بالخجل المتواضع، كما لو أنّه يدرك أنّ تطوره سيكون خطّاً مستقيماً محكوماً بجسد والده الأبيض والأسود والذي يشبه جسده إلى حدٍّ بعيد، ولم يكن يرغب بتذكّر ذلك.

هزّ برأسه وأغمض عينيه قليلاً ليتفادى الموقف.

"ستنزعج الآن، لكنّك ستهدأ فيما بعد ثمّ ستصبح سيّداً لطيفاً ومحترماً.. هل تعرف ماذا تريد أن تدرس؟"

"هندسة معماريّة"

منذ نحو سنتين وهو يقول هذا، كجوابٍ أوتوماتيكي، رغم أنّه توقّف عن الرغبة في دراستها. بالنسبة له، فإنّ هذا الجواب سريعٌ يوفّر الوقت وينهي الحديث في الحال، معطياً إيّاه هالة من النضج المبكّر، فهو أحبّ دائماً أن يبدو أكبر من عمره، وكانت الهندسة المعماريّة أفضل إجابة مغرية خطرت له.

"لكنّك لا تبدو كمهندس معماري" علّقت العمّة إيلي.

"هل تعتقدين ذلك؟"

"بالطبع، ليس لديك الكثير من الدم الحامي لذلك"

ودّعته بقبلة صغيرة، تفاجأ للحظة من برود جلدها، ثم أكمل طريق العودة وراح يتمشّى ببطءٍ وهو يفكّر بكلام العمّة إيلي، حاول أن يرى نفسه من خارجها، ظنّ أن دمه حامٍ وأنّه مفعم بالحياة، فكّر: ربّما شعر بذلك عندما قارن التناقض ما بين جسده وطاقته مع العمّة إيلي.

شاهد بعض الفتيات تنظرن إليه من بعيد، فرغب بالذهاب إليهنّ وسؤالهنّ: "هل أعجبكنّ؟؟ أجبنني! هل أعجبكنّ؟".

في تلك المجموعة من الأصدقاء الجدد فتياتٌ أيضاً، كنسخٍ أنثويّةٍ عن بابلو، ماركوس، تيخاس وريفيرو. وعندما رآهنّ في أوّل مرّةٍ قرب الساقية

اختلطت ملامحهنّ عليه. قامت الفتيات بمناداتهم من بعيد، حيث اقتربوا وجلسوا على مناشفهنّ. كنّ سبعَ أو ثماني فتياتٍ، لكنّه لم يستطع تمييزهن وبقيت صورتهن في رأسه تدور. لم يكنَّ يتجاوزن الثالثة أو الرابعة عشرة عاماً، وعندما كان ذاهباً سمع إحداهنّ تقول للصبية: "ومن أين أتيتم بهذا؟ أريد تجريبه"

أجابها ريفيرو: "إنّه لك بالكامل"

لكنّه عندما عاد لم يجد شيئاً، كنّ أشبه بحديقة مصطفّة، حلواتٍ كالعسل البريّ، لا تشبهن أبداً فتيات النّادي أو المدينة، أجسادهنّ وروائحهنّ غير مألوفةٍ، وجوههنّ جريئة وبلهاء، ذقونهنّ مستديرة، وسواعدهن قوية وصحيّة، الأثداء لديهن متطوّرة وتسبّب تهيجاً جسديّاً مميّزاً. كنَّ عصبيات و واضحات، قليلات الحرج وأنانيّات، أصواتهنّ مرتفعة.

دارت في ذهنه فكرة عبثية، وهي أن جميع هذه الفتيات معجبات به، ولن ترفضنه فيما لو اقترب من أية واحدة منهن وطلب منها ممارسة الجنس معه، بل إنهنّ سيفعلن ذلك بكل سرورٍ على شاطئ البحر في إحدى تلك الليالي المتبقيّة من الإجازة. لم تكن أياً منهن تعجبه بذاتها، إلّا أنهن كنّ جميعهنّ مجتمعاتٍ يحركن فيه رغباتٍ كان هو نفسه يجهلها.

عشرةُ أيّام من الإجازة أمامه بعد، كان الوقت مساءً، والشمس بدأت تغيب خلف الساقية في هذه الساعات التي تتحوّل فيها القرية بأكملها إلى ما يشبه صحناً لّماعاً من البرتقال والورود المزرقّة، نهارٌ آخر يودّع الجميع، ونسماتٌ مريحةٌ تنظّف الهواء بخفّة، والفتيات يلبسن التنانير والأثواب فوق ملابس السباحة الرّطبة.

"لم لا نذهب اليومَ إلى مهرجان القرية؟ إنّه سيبدأ اللّيلة!"

"ربّما سنمر" قال تيخاس

لم يستطع هو تذكّر اسم أية فتاة منهنَّ.

"وهل عندك ما هو أفضل لتفعله؟" ردّت ساخرة

"وما الذي تعرفينه أنتِ؟"

"وأحضروا هذا معكم أيضاً"

نظر إليها هذه المرّة، فوجد عيوناً عسليّة برّاقة وصلبة مثل الحصى تلتهمه في بئرٍ من الرغبة.

"فليأتِ إن أراد!!"

"بالطبع يريد" أجابت هي مرّة أخرى وهي تدسّ كلامها وسط صمته وتغييب نظره عنها.

ثم في الّليل وهو يعدّ نفسه للخروج إلى المهرجان، حاول مراراً تذكّر تفاصيل وجهها دون جدوى، على الرّغم من أنّ صوتها كان يصدح جليّاً في رأسه، عرف أنه لعب في هذه المجموعة دوراً محمّساً لكنّه كره نفسه، لأنه لم يكن يتكلّم بوجودهم. دخل صوت الفتاة وخرج من رأسه كالصورةِ. "إلى أين أنت ذاهب؟"، سألت والدته.

"إلى المهرجان"

"مع أصدقائك في النّادي؟"

"أجل"

وفعلاً اجتمع بصبية النّادي في المهرجان دون قصد. بدا العالم عاديّاً ومملًّا.. والأضواء بدت بعيدة المنال وحزينة، لطالما أحسّ أنّ المهرجان هو الحدث المهم والسعيد في فترة الصيف، لكن وللمرّة الأولى شعر في ذلك اليوم أنه كان مكاناً مخيّباً للآمال، مخزٍ وتعيس لدرجة لا توصف..

لم يصل كثيرٌ من الناس إلى المهرجان بعد، المكان مليءٌ بالأولاد ذوي الأمزجة المعكّرة، مهرّجون وألعاب يانصيب منصوبة هنا وهناك، أكفٌ

ضخمةٌ يرتديها أشخاصٌ ينظرون من خلفها بفرحٍ عصبيٍّ ومصطنع. أولادٌ يقفون مع آبائهم كما فعل هو طوال سنين، فخورٌ بأبيه الذي كان يطلق العنان محدثّاً إيّاه عن مغامراته الشّبابية، أو بإلقاء التحيّة على أصدقائه القدامى، و الذين لابد لكلٍّ منهم أن يؤكّد على التشابه الكبير بينه وبين والده، فيشعر هو بالغرابة والمجد، ويشعر أبوه بالعزّة والفخر.

المهرجان هو الآخر مختلفٌ هذا الصيف، لم يعد طريقاً مضاءً ومنيراً، إنّما مزراباً شحيحاً وخانقاً. رائحة شواء السمك تشبه رائحة الكربون وتلوث الجو بسحابة لاذعة. الموسيقا رديئةٌ ومرتفعة، أضواء لأقواس قزح اصطناعية تضيء بين الحين والآخر، وجوه الأولاد المتحمّسين بهيستيريا اللعب في الملاهي.

ماركوس، بابلو، تيخاس وريفيرو يقفون مع الفتيات أنيقين ومرتّبين كما لم يرهم من قبل، الفتيات يلبسن التنانير والألبسة الضيقة ذات الألوان الحيّة والزاهية، والصبية يرتدون اللون الأسود كما لو كانوا متّفقين على ذلك، ويبدون جميعهم مرتاحين وعاليي المزاج.

تمشّى نحوهم بشيءٍ من التنازل، كمن يساير نكتة طفلٍ بابتسامة، أراد أن يظهر مختلفاً عنهم في هذه اللّيلة بالذات دون أن يعرف السّبب. أمضوا وقتاً ممتعاً وتناولوا الشراب، ثمّ رقص مع إحدى الفتياتِ وهو يقفز فرحاً كالمهرّج، إلى أن لمسته بيدها من خصره، وأطبقت عليه بأصابعها الطويلة، كعشرةِ مخالب سودٍ. فكّر على الفور أن هذه الفتاة لم تكن بشعة مطلقاً، لها شفتان نحيلتان وقد زينتهما بأحمر شفاه خمريّ اللون، عيناها مستديرتان وعسليّتان، على كتفيها خطوطٌ من علاماتٍ بيضٍ تلمع من ارتداء زي السباحة. من تكون هي؟؟ سأل نفسه هل هي فراني؟ أم دولي؟ أم أنّها موني؟ ولم يكن يريد أن يسألها.

"هذا لأنك سعيد بصحبتي؟" سألت هي ممازحة.

"نعم" أجابها

بعد نصف ساعة، وَجَدَا نفسيهما على بعد نصف كيلو مترٍ من المهرجان في الظلمة، بين الكثبان يمشيان كرائديّ فضاءٍ مثقلين في كوكبٍ مظلم.

لعابها ذو طعمٍ حلوٍ كأنّها احتست عطوراتٍ أو ما شابه، كان يخشى أن يفتضح أمر جهله الكامل بالتعامل مع الفتيات، يقبّلها فيشعر بالإثارة والقرف ممزوجين ببعضهما، لسانها خشنٌ وأكبر ممّا كان فمها الصغير ليوحي بغلاظته. خلع قميصها ليكشف عن بياض ثدييها البائسين كمقطعٍ عرضيٍّ لليمونتين صغيرتين، ولها حلماتٌ سودٌ مدبّبة تخرج منها شعراتٍ ثلاث. وعندما بدأ بمداعبتها راحت تضحك، ظنّ أنها هي أيضاً شعرت بالخجل من ثدييها وهذا ما أثار حماسته معها طوال اللّيل، ربّما كان القاسم المشترك الوحيد بينهما هو هذا الخجل.

البحر يلمع من البعيد بحلّة يكسوها الشيب، وأصوات الموج تضرب بين الفينة والأخرى كأنّها همس يفور ويغلي، بدت له اللحظة المناسبة لإخبارها، ثمّ مال قليلاً باتّجاهها، لكنّ شيئاً ما في وجهه فضحه بابتسامة مقهورة. فكّر: "هل أعجبها حقّاً؟"

وقال لها دون قصد: "هل نفعلها؟"

تغيّرت ملامحها فجأةً، وغطّت غيمةٌ وحيدةٌ النور الخافت الذي أنار وجوههما، أعادت ارتداء قميصها وهي تبدو أكثر جديّة.

"كنت تعجنّي فعلاً منذ قليل" قالتها وهي تعيد إقفال حمّالة صدرها.

وبعد صمتٍ قليل:

"عليك أن تبدأ أنت أوّلاً"

"أبدأ أنا، بم سأبدأ"

"هل أنت أحمق؟؟ أم أنّك تتحامق؟"

عدّل الفضول شيئاً من خجله وقرفه، ودفعها جهله التام بالأمور إلى التوجّه نحو جذع شجرة صنوبر والجلوس عليها وخلع ملابسها مجدّداً، لم يستطع رؤية التفاصيل من شدّة الظلمة ومن ظلال الكثبان التي غطّت صورتها، فاقترب منها بهدوء وهو يشعر بالرّاحة تتسلّل إليه، بدأ يرى هلالين محلوقي الشعر في وسطهما تاجٌ وعلى جانبه وشمٌ صغيرٌ لنجمة مفرّغة.

"إنّه وشم، أليس كذلك؟" سأل وهو يحاول أن يبدو لطيفاً، كما لو كانت طفلاً في المهد وهو يحاول اكتشاف جنسها، أذكر يكون أم أنثى...

"نعم إنّه وشم"

قرّر عدم طرح المزيد من الأسئلة بعد أن رآها غاضبةً بعض الشيء، واقترب ليباشر بعض الحركات النظريّة دون أن يعرف صحّة تطبيقها، وكانت الروائح والأحاسيس جديدة عليه لدرجة أنّه لم يدرك ما إذا كان سعيداً أم لا، الأحرى أنه لم يشعر بالسعادة لكنّه بدا مقتنعاً، حاول إقناع نفسه بأن أحد أقربائه قد جلب من بلادٍ بعيدةٍ طعاماً ما باهظ الثمن وشهياً.

أدهشه كيف أن عضلات رجليها كانت تنقبض من الدّاخل، وتتقلص أردافها مع كلّ حركة مداعبة يفعلها، لم يكن يفهم منطق الأحداث تماماً لكنّ تناغماً ما يقوده لفعل ما هو صائب، بدا الموضوع أشبه بتجربةٍ علميّة، دون إثارة تذكر، ومع كثير من الفضول. وفجأة انقضّت عليه الفتاة وأمسكته من شعره وضغطت على رأسه بقوّة، ثم صرخت بأعلى صوتها.

"هل آذيتك بشيء؟"

نظرت إليه بدهشة، لم تفهم تماماً ما قال، وانفجرت ضاحكةً.

"من أين خرجت لي أنت؟"

ثم عاودت ارتداء ملابسها دون التوقّف عن القهقهة.

اختلطت المشاعر لديه، كآلة ما ذات مستويات تقنيّة متعدّدة الوظـائف، والإهانة كانت إحدىٰ هذه الوظائف، كأن هذه الآلـة قـد علقـت في سـائل لزج وغدت عاجزة عن الحركة.

سألها مشكّكاً: "قد حان دوري... أليس كذلك؟"

أجابت ضاحكةً: "لكن عليك أوّلاً أن تخلع ثيابك..... أليس كذلك؟"

وبعد أن خلع ملابسه فعلاً التفت ليكتشف أنها غادرت راكـضةً باتجـاه أضواء المهرجان وهي تتلفت لترىٰ إن كان يتبعها، لكنّه حتّىٰ لم يتكلّف عناء التلميح لها بأنه يريد اللحاق بها، عاد ببساطة ليرفع سروالـه ويمـشي باتجـاه الشاطئ.

وللإهانة أيضاً انطبعت التفاصيل في ذاكرته، فحاول فهم الأمور عبرها، لكنّه لم يستطع الهروب من فكرة الخيانة والهجر، والتي سرعـان مـا تحوّلـت إلىٰ سببٍ جديدٍ للتهيُّج الجنسي.

لا زال يـشعر بالـذهول، ولا زال أيـضاً يـستطيع اشـتمام رائحـة الفتـاة الممزوجة بأكواب الشراب التي تناولها، فدفعت به إلىٰ حالةٍ مـن الحـساسيّة المفرطة والبرد في آن معاً. الأمر الذي دفعه لاكتشاف أنَّ جميـع الأشـخاص مـن حولـه كـانوا محكـومين مـن قبـل غرائـز وشـهواتٍ غريبـة يرقـصون كالمجانين، كأنهم يحومون حول أنفسهم وحول رؤاهم.

عندما عاد إلىٰ المهرجان كـان بـابلو، مـاركوس، تيخـاس، ريفـيرو قـد اختفوا مع الفتيات، لكنّه شاهد صبية النّادي لا يزالون هناك مجتمعـين معـاً قرب ألعاب الملاهي. رأىٰ نفسه أكثر كبراً منهم في حين أنهم بدوا له كالعام الفائت تماماً، شعراً أشقرَ، ملابسَ فاخرة ووجوهاً جميلة. تأملهم مـن بعيـد كأنهم يسبحون جميعاً في الزمن. هم تعرّفوا عليه بدورهم فاقترب منهم.

خلال نصف ساعة معهم، نسي كليّاً ما حدث معه قرب الكثبان، كـانوا منشغلين بأحاديثهم، أمّا هو فقد لعب دور الحكيم الصامت كالعادة، كما لو كان يجرّب ثوب تنكّر قديم يليق به دائماً.

اقترب منه أحدهم، ذو جسدٍ قوي ومـليء بالعـضلات لكنّـه لم يـستطع تذكّر اسمه، وهمس: "سأتبول، لم أعد أستطيع الاحتمال".

وذهب باتّجاه الصنوبر بخطىً متثاقلة.

"انتظر، سأذهب معك"

ابتعدا قليلاً خلف الملاهي ليتبوَّلوا على شجر الـصنوبر بـصمت، وبعـد حين شعر بتربيتةٍ على كتفه، وسـمع الفتـى يقـول لـه: "هـل تعلـم، لطالمـا أحسست أنكم حفنة من الأغبياء... أنت وباقي صبية النّادي".

وظلّ الفتى واقفاً بابتسامةٍ متجمّدةٍ وواثقة، التفت إليه ليراه ثملاً ومليئاً بالقوّة والبلاهة.

"إذاً أصبحنا اثنين؛ لأنّني أيضاً أظنّ أنّك غبيّ"

ظلّا صامتين لبرهة، شعر هو بأنّ القليـل مـن الـشّجاعة تنقـصه ليفقـد صوابه، لكنّ الفتى استمر بالمزاح.

"ما الأمر؟ هل ستضربني؟"

لم يكمل الفتى جملته حتّى انقض عليه وحـاول لكمـه في وجهـه، لكـنّ الآخر ابتعد فأصابه في طرف أذنه. ثمّ أحسّ بلكمـة قويـة في فكّـه طرحتـه أرضـاً وبـدأ قلبـه ينـبض بعنـف، وضـاع بـين التوقّعـات والاسـتعدادات والشعور بالحرقة كقطعٍ من الزجاج تتحرّك في أحشائه تاركةً إيّـاه دون ثقـةٍ بنفسه مزعزعاً وفاقداً للأمل، شدّة العراك والإحساس بأنّه سيخسر المعركة دفعه إلى لكم الفتى مرّة أخرى، ما دفع الأخير إلى فقـدان أعـصابه وتوجيـه لكمة قاضية كادت تفقده وعيه، وعندما حاول النهوض انكبّ عليه الفتـى

وجلس فوقه وثبّته بعنف، شعر – ولم تكن تلك المرّة الأولى – برغبةٍ في أن يُضرب حتى الموت، في أن يُدفن بضرباتٍ عنيفة من الآخرين، كما لو ترسّخت لديه قناعة عجيبة بأن هذا الأمر سيغير عالمه إلى عالم جديد.

"والآن ما الذي تريدني أن أفعله بك أيها الأحمق؟؟؟ أأقتلك أم ماذا... أيه... أحمق"

وفي الحمّام قبل النوم، نظر إلى المرآة مطوّلاً، ثم سحب هاتفه المحمول والتقط لنفسه صورةً، واندسّ بعدها في سريره محاولاً عدم إصدار الضجيج لكي لا يوقظ أحداً في المنزل، وراح يتأمل الصورة وضوء الهاتف المحمول ينير بلطف الغرفة المظلمة: شفتاه جريحتان عيناه مفتوحتان كوحشٍ مفترس.

في مناسبات قليلةٍ أثناء الصيف كان يشكّل مع شقيقته أنيتا فريقاً صغيراً لم يكن موجوداً في فصول الشتاء، كأن الصيف كان عذراً ليقتربا من بعضهما. طالما نظر إليها ووجد الإعجاب في نظراتها الثابتة، إضافةً إلى التطابق في الملامح، إلّا أن وجهها هي أصغر من وجهه.

كان هو بالنسبة لها شخصاً مثيراً للفضول وغامضاً. عندما يذهبان إلى الشاطئ سويّةً، كان يقودها ممسكاً يدها الصغيرة، أمّا هي فلم تكن تمانع ذلك التصرّف، الذي كان يشعره بقربها وحبّه لها.

كانا يحميان بعضهما من الحزن بشكلٍ مبهم، يرمي عليها شيئاً فتعاود رميه هي، ويواصلان على هذه الشاكلة، بين سخونة رمل الشاطئ، وقلق والديهما عليهما.

"وقعتَ؟؟؟ لكن كيف؟؟ خرجت من المهرجان ووقعت بهذه البساطة؟؟ دون سبب؟؟" سألت أمّه.

في رغباته ومخاوفه، تميل أنيتا نحوه عاطفيّاً وحسيّاً، تتمشّى ببطءٍ باتجاهه كما لو أرادت أن يكون فعلاً قد وقع. وفجأة انتابه شعورٌ خارقٌ بالرفقِ حيالها، حيال تفاصيلها الصغيرة وأقدامها المدوّرة وتعابيرها الطّفوليّة.

بعد ذلك سأله والده وهما في المقصف على الشاطئ: "قل الحقيقة.. مع من تشاجرت البارحة؟"

"لم أتشاجر مع أحد.. لقد وقعت"

"نعم صحيح... وقعت على قبضة يدك اليمنى وعلى شفتيك..."

أراد تفادي الضحك من تعليق والده الذي وجّه له صفعة رقيقة أشعرته بأنه بالغ.

"هل كان هنالك سبب وجيه على الأقل؟"

"سببٌ لمَ؟"

"للعراك الذي كدت تؤذي نفسك من أجله؟"

"لا، في الحقيقة"

"هل رأيت يا بُنَيّ... لا يوجد سبب لهذا"

تحمّس جرّاء ردَّة فعل أبيه، وساد صمتٌ مريح من الثقة والخصوصية التي نشبت بينهما، لكنّه في أعماقه تمنّى أن ينتهي ذلك وأن يتوقف والده عن طرح المزيد من الأسئلة. وبالفعل انشغل أبوه بالتفكير بموضوعٍ آخر وبدا شبه غائبٍ في الحديث عينه.

"عمّتك ليست بحالة جيّدة، إنّها على وشك الموت"

ثم حوّل نظره عن كوب الجعة الذي في يده ونظر إليه بحزم: "سنصطحبها معنا إلى مدريد، لا أريد لها أن تبقى وحيدة هنا".

لم يضطرّوا لاصطحابها إلى مدريد، فقد أسعفوها إلى المستشفى في اليوم التالي، بعد أن ظهرت نتيجة التحاليل وأفاد الأطبّاء بضرورة وضعها على

الفور في غرفة العناية. حيث اتّصلوا بوالديه عندما كانوا جميعاً في الـشاطئ، وهرعوا بعدها إلى المستشفى دون المرور بالبيت لتغيير ملابسهم. في الطريق فكّر هو بحماقةٍ مفادها أنهم سيملؤون المستشفى برمل البحر، وغرفة العمّـة إيلي وسريرها أيضاً سيمتلئ برمل البحر. وبالطبع فإنّ التفكير برمل البحـر أخفّ من التفكير بالموت، أو حتّى بالعمّة إيلي.

لم يدرك مرضها، رآه كموضوع مجرّدٍ وخـارجٍ عـن أي سياق منطقـي، رغم أنه شاهدها تتدهور أمام عينيه في ذلك الصيف، إلّا أن موتهـا مبـاشرةً بدا أشبه بضربٍ من الخيال، الهواء صار خشناً كأنه مسخٌ بغيض.

طُلب منه الذهاب إلى منزل العمّة إيلي لإحضار ملابـس النـوم وبعـض الحاجيّات الخاصّة، وإحضارها بها إلى المستشفى.

بقيت أنيتا معه وعندما وصلا إلى المنزل، قال لها الحقيقة: "إنّها سـتموت هل تعلمين ذلك يا أنيتا؟"

"أجل، إنها ذاهبة إلى السماء"

"لا.. لن تذهب إلى أي مكان، ستموت وهذا كلّ مـا في الأمـر. الـسماء ليست موجودة"

"غير موجودة؟"

"نعم غير موجودة"

بقيت أنيتا صامتة، أمّا هو فكان عليـه أن يغـير قلـيلاً مـن سرعـة مـشيه الاعتيادية، لكي لا تتبعه راكضة، عبست أنيتا قليلاً محاولةً تدمير شيءٍ ما في داخلها، ثم أحجمت: "نعم إنّها موجود"

"لا"

لم تكن أنيتا طفلةً اعتيادية، أحياناً كانت تظهـر بمظهـر الكـائن الـشديد البرودة، ومنذ ولدت وهي تحاول الإحاطـة بالأشـياء عوضـاً عـن لمسها.

معظم الوقت تكون مختفية، تتنقّل من مكان إلى آخر بخطواتها الصغيرة ونظرات تشبه نظرات العصافير. في أحيانٍ أخرى تبدو مختلفةً تماماً، وكأنها تستطيع استقبال أوجاع الآخرين.

مشت معه بسرعة كما لو أنها تجرّ خلفها جبلاً راسخاً، أحسّت بالخطر أيضاً. بيت العمّة إيلي كالعادة تفوح منه رائحة الأطعمة الرخيصة. وقفت أنيتا خلفه.

"يخيفك المنزل؟"

"نعم، قليلاً" أجابت ببراءةٍ وخوف.

في المستشفى ظهرت أشجع منه بألفِ مرّةٍ، حيث دخلت الغرفة واقتربت من السرير بقفزةٍ سريعة وقبّلت العمّة إيلي. أمّا هو فوقف على الباب علّ أحداً يسأله إن كان خائفاً.

عمّته تبدو جثّة صفراء متعرّقة وسمينة، لم يتخيّل قط أن تغير اللون يمكن أن يوحي بالموت بهذه الطريقة الملحّة.

والده حاول أن يبدو عقلانيّاً وأن يفتح أحاديثاً جانبية لادّعاء السكينة، أمّا العمّة إيلي فأجابت بتناقض كبير: "قل ما شئت، أنا دائماً كنت أفضّل النساء على الرّجال".

أحسّ في هذا المساء بالخجل وعدم الارتياح، بدأت العمّة تهذي واضطر والده إلى سحب أنيتا من المكان، حقنوا إيلي بالمورفين وأخذت ملامحها تذوب، نامت أخيراً متعبةً ومنهكة، وراح يتأمّلها بينما ملقيّة على سرير المستشفى، محاولاً التعرّف إليها دون أن يستطيع، لم يصبه الدّوار، لكنّ صفيراً غامضاً كان يصدر من لحمها الذي لا يزال حيّاً، حالة الحراسة والترقّب كانت تصرف طاقةً تراءى له أنها تتغلغل في جسد العمّة إيلي

النائمة في تلك اللحظة. ينظر إليها من بعيد كما لو أنّه لا يستطيع الاقتراب منها أكثر، ثم يحافظ على مسافة ثابتة كأنّها ميّتةٌ بالفعل.

قالت وهي نائمة: "متأكّدة مثل يقيني بالعالم من حولي"، ثم رفعت يدها قليلاً وصاحت متألّمة. بدأت أمّه بالبكاء. لم يتصور حتّى تلك اللحظة المعنى الحقيقي للألم الجسدي، ظنّ دائماً أنه حدث عادي يتبع قواعد معينة، وفي الواقع مراقبة الألم عنت له كسر المنطق والقوانين، لم يكن يشك بأن الحياة محكومة بالخجل اللانهائيّ، وأن هذا الخجل مرتبطٌ بشكلٍ وثيقٍ بالألم الفيزيائيّ. عرقل مرض عمّته وألمها العالَم بالنسبة له، مثل زوبعةٍ عمياءَ من مرض لا يحتمل. بدا له المرض من قبل كحالة ذهنية، لكنّه الآن أمرٌ خاصٌّ وقذرٌ، بائسٌ وعقيم.

استعادت وعيها لربع ساعة، قالت: "يجب تنظيف كلِّ هذا"، ثم أضافت أيضاً وهي تنظر إليه: "قل له إنّني على حقّ"

"لمن؟"، قال

وعندما دخل والده، قالت له: "لا أحبّ الأغبياء، لم أتحمّل في حياتي شخصاً غبيّاً"

أجاب أبوه بشيءٍ من المأساة: "بربّك إيلي"

لم يتبقَّ من الصيف سوى ستّة أيّام، عاشت منهم العمّة إيلي ثلاثة، حيث تناوب الجميع على البقاء معها لئلّا تبقى وحيدة، ثم على البقاء مع أنيتا أيضاً، إذ لم يُسمح لها بالدخول إلى غرفة المستشفى.

طلبت منه أنيتا أن يحدّثها بالتفاصيل والإيماءات عن الأحداث التي دارت في الدّاخل. بذل هو كلّ جهده لفعل ذلك، وأحس في الوقت نفسه بأنه يرمي الكلام في بئرٍ سحيق دون قعر. بينما أنيتا تحدّق به بجديّة كما لو كانت ترى الأحداث بعينها.

عاش روعة الـصيف في بعـض الأحيـان، وأحـس لّما كـان يـذهب إلى المستشفى بأنّ جسد العمّة إيلي هو مكانٌ بحد ذاته، وهو يتحـرّك في جوفـه. كمن يفتح طريقه في ظلمةٍ وأن لابد له أن يترك أثراً أو بصمةً فيها، ومضاتٌ وصدىً، وصدىً للصدى، واكتشافاتٌ عظيمة.

في صباح أحد الأيّام، فتحت عيناها ونظرت إلى الـسقف دون أن تقـول شيئاً، مع غصّة مؤلمة في حلقهـا، كـان يجلـس وحيـداً معهـا إلى أن دخلـت إحدى الممرّضات

"لم تتكلّم اليوم"، قال هو

أجابته الممرّضة: "هنالـك أشـخاصٌ لا يـشتكون مـن شـدّة العـذاب، يكتفون بالصمت فحسب"

غادرت بعد أن نظّفت الغرفة، فاقترب من العمّة بهاتفه المحمول والتقط لها صورةً غريبة، تنظر فيها نحوه بثبات، شعرها مبعثر وشفتاها مترهلتـان، منفوختان من الألم، وجلدها مبقّع وناعم في الصورة، لكنّه لـيس كـذلك في الواقع... كأن شاشة الهاتف الصغيرة تخرج مادّةً حليبيّة.

والمرعب في الصورة، هو أن شيئاً فيها لا يمكن تأمّلـه، مـسحت العمّـة إيلي يدها بالفراش ومدّت يدها باتّجاه الهاتف، أرادت رؤية هذه الصورة.

وضع لها الهاتف قرب وجهها، بدت صاحية بشكل عجيـب، مـع أنهـم حقنوها للتو بالمورفين.

"من كان يحبّني سيحبني أيضاً في هـذه الحالـة"، كلماتهـا وردّات فعلهـا أصيلة، لكنها كانت بالكاد موجودة... انطبعت على وجهها ملامح البـؤس واختفت في ثوانٍ، كطبعة قدمٍ رطبة على شط البحر..

"أعطني قبلة".

لكنّه خشي منها، من عنفها، لم تكن المرّة الأولى؛ لأن العمّة إيلي دائماً تطلب القبلات وأن يقبّلها النّاس، وهي تطلب ذلك بطريقة ما كان هو ليفعلها في حياته، فهو لم يقبّل بهذه الطريقة أحداً قط، لا فتيات، ولا والديه ولا أنيتا.... لم يقبّلها في النهاية.

شاهد الفتيات مرةً أخرى، في إحدى تلك الأمسيات التي توجّب عليه فيها الاعتناء بأنيتا، بينما بقي والداه في المستشفى. مكثت الفتيات طوال الوقت في نفس الزاوية الشاطئية، في نفس المكان الذي تعرّف فيه عليهنّ مع ماركوس وبابلو وتيخاس وريفيرو، ربّما فعلن ذلك ليسهل تحديد موقعهنّ، أو أن هذا المكان يعجبهن بالفعل، حتّى ولو صعب تصديق ذلك.

جلس مع أنيتا في أحد المقاهي المكشوفة التي تطلّ على الساقية، وطلبا هما الاثنان كأساً من شراب "الأورشاتا" تقاسماه سويّةً، بما أعطاه والده له من النقود لاحتساء المرطّبات. لم يكن هناك الكثير ليفعلانه في تلك الأمسيات، يتمشّيان أحياناً على مضض كمسنّين يعانيان من مشاكل قلبيّة.

استطاع تمييز الفتاة التي ذهب معها إلى الكثبان، لم يذكر اسمها، هل هي موني، أم دولي، أم أنّها فراني؟؟ ويبدو أنّها هي أيضاً قد تعرّفت إليه.

نظرا إلى بعضهما لثلاثين ثانية تقريباً قبل أن يحيد هو نظره عنها خجلاً ودون قصد، ثمّة فتاة جديدة معهنّ، بدت من بعيد أكبر سنّاً، لكنّ حركاتها ظهرت أكثر طفوليّةً. بعد عشر دقائق اكتشف أنّ الفتاة نفسها غير طبيعيّة. باقي الفتيات كنّ يلعبن معها، ويَدُرون حولها مسبّباتٍ الدوار لها، ثم بعد ذلك يتعبنَ ويدعنها وحيدة، ويعاودن اللعب معها مرّة أخرى.

كانت تصرخ بحدّة، بينما لم يستطع من موقعه البعيد معرفة السبب، أو ما إذا استطاعت هذه الفتاة التعبير عن نفسها بطريقة مختلفةٍ عن تلك التي تستخدمها. وضعنَ لها طوّافة ضخمة وذهبنَ جميعهنَّ نحو الماء، بدت هي

سعيدةً، وعبّرت عن ذلك بهيجان بدا معبّأً بالألم. كان يراقبها بعناية من بعيد، حتّى أنّه كان يستطيع إدراك محاولاتها للتنفّس، ودولي أو موني أو فراني، تلتفت بين الحين والآخر لتتأكّد من أنّه مازال ينظر إليها، لكنّه في الواقع صبّ اهتمامه على الفتاة الجديدة، سابحاً في عالمها.

لم تكن جميلة نهائيّاً، ولا في فرحها، لكن ربّما كان فرحها هو الأمر الجنوني بالنسبة إليه في تلك اللحظات، وجهها مشوّه إلى درجة لا تحتمل، وكأنها شخص طبيعي يشعر ببؤس لا يوصف، لكنّها بدت فرحة. لم تدم كثافة الموقف طويلاً، فبعد بضع دقائق غضبت وبدأت تصرخ فسحبتها الفتيات إلى خارج الماء، ونشفنها فيما لم تمانع هي ذلك. ثم جلست منهكةً على الرّمال.

"هل تعرفهنّ؟" سألت أنيتا

"لا، حسناً أعرف إحداهنّ".

اجتمعت الفتيات وتوشوشن، ثم التفتن نحوه جميعهنّ ونظرن إليه بما لا يدعو للشك مجالاً. تشنّج هو وشعر بالإحراج وحوّل نظره عنهنّ.

"إنهنّ يُشرنَ إليك"، علّقت أنيتا.

لّما التفت من جديد رأى الفتاة غير الطبيعية تتقدّم نحو طاولته وهي لا تزال مبتلة ومليئةً بالرمل، أمّا باقي الفتيات جلسن في الخلف يراقبن بعناية. وصلت إلى الطاولة ووقفت عندها، بدت من قريب كأنّها مخلوق غريب ومحبب، كعروس النهر أو ككائنٍ شبه برمائيّ، ظهرها مشدود، ورأسها صغير ومكثّف بفمٍ يملأ ملامحه كليّاً، شعرها منساب وطويل حتّى الكتفين، وأرجلها ضخمة تنتهي بأرداف قوية وغليظة كأوراك فرسٍ لا يستطيع أحد لمسها، عيونها حيّة أكثر من أي شيءٍ آخر فيها، وكذلك يداها

اللتان حسبهما لبرهة مستقلّتين عن باقي جسدها دون أن تدرك - ربّما — هي ذلك.

بدت له كأنّ دماغها مكوّنٌ من عددٍ لا متناهي من الأنفاق الساخنة والمسكونة بالحدس على نحوٍ لا يمكن تخيّله، كأنّها رقائق معدنيّة تساعدها على فهم الواقع.

دخلت بشكل أرعن إلى المقهى، ودفعت دون قصدٍ سيّدةً، مثيرةً الدهشة ولاستغراب، نظر إليها الجميع بغضبٍ رحيم. التفتت إلى باقي الفتيات وصرخت لهنّ من البعيد: "هل هذا هووو؟"

أشارت إليه بسبّابتها فبدأ يتعرّق، ولوّحت لها الفتيات بنعم، توجّهت نحوه كأنّها تعرفه جيّداً، مرحةً ككلب وجد العصا التي رموها له:

"قالت فراني إنها سعدت كثيراً بصحبتك ذاك اليوم... وإنّها تريد ردّ المعروف لك".

صوت الفتاة كان يخرج من أنفها، لأنّها تلهث من الركض باتجاهه، أمكنه أيضاً رؤية عروق رقبتها، وكان جميع من في المقهى ينظر إليهم. عشرون شخصاً أو أكثر دون عملٍ يجلسون في ذلك المقهى ككلّ يوم منتظرين حدثاً ما أو فعّالية للتسلية. كان هو التسلية اليوم على طبقٍ من فضّة، هو في الصفّ الأول من العرض. نظروا إليه مبتسمين، يؤكّدون له أنه سيكون موضوعهم لدى عودتهم إلى البيوت. جرت الأحداث خلال الصّيف بهذا البرود، حتّى الأحداث العابرة بدت ذات أهميّة كبيرة.

وقفت تنتظر ردّه.

"قولي لفراني إنّنا سنرى، في يومٍ آخر".

كلماته هذه كانت بمنزلة العصا التي قذفت مجدّداً في الهواء باتّجاه الفتيات على بعد أمتار عديدة، تحرّكت في الحال راكضة بطريقة مضحكة، تحاول

جاهدةً الركض بشكل عادي دون أن تحقق ذلك، تحاول مجدّداً فتتعثّر، وتصدر أصواتاً في كلّ خطوة تخطوها، كوقع لكلماتٍ قويّة على الأرض.

دفع حساب طاولته محرجاً، وسحب أنيتا من يدها وفي نيّته الخروج من المكان.

"أنا لا أرغب المغادرة" قالت أنيتا.

"لكنّي أنا أرغب بذلك".

أراد الرحيل بأسرع وقت من هناك، وبذل قصارى جهده لئلّا ينظر إلى الفتيات مجدّداً، وبعد أن ابتعد أمتاراً قليلة باتّجاه المنزل، عاود سماع الخطوات الثقيلة من خلفه.

"انظر، إنّها قادمة من جديد"، قالت أنيتا.

التفت ليراها مرّة أخرى أمامه تصفر من التعب:

"تقول فراني أي يومٍ هذا؟؟ لم قلت يوماً آخر؟؟ عليك أنت أن تحدّد متى هو هذا اليوم"

مقطوعة النفس ومصرّة جدّاً، كما لو أنّها في امتحان لغة لا تتقنها البتّة، وتريد أن تعلمها للآخرين في نفس الوقت... كانت هذه هي قواعد اللعبة إذاً، وهذه الفتاة هي جزءٌ من اللعبة أيضاً، هذه الرسولة الغريبة الأطوار، مع عينيها المليئتين بالتوقّعات وتعبها الصادق والمؤلم، والذي يدعو للتساؤل... لمَ قد ترغب بنقل الرسائل عوضاً عن شخصٍ آخر، والأغرب أنّها مستعدّة لفعله إلى ما لا نهاية، الأمر الذي دفعه إلى فقدان إعجابه بها تقريباً... تساءل مع نفسه.. كم يكون عمرها؟؟ خمسة عشر؟؟ عشرين؟؟ أم عشرين ألفاً؟؟

"قولي لفراني إنّني لا أعرف، عمّتي تموت وعليّ أن أذهب إلى المستشفى يوميّاً"

قالها وكأن العالم سينتهي بعد ساعتين، فما الفائدة من أن يلتقيا؟ بقيت تلك الفتاة ساكنة، واختفت ابتسامتها المتحمّسة بلمح البصر عن وجهها:

"مسكينة عمّتك"

"نعم مسكينة".

ثم ركضت مجدّداً بجدية أكبر وسرعة أعلى، لم تكترث هذه المرة إلى شكلها وهي تركض، ولم تكلف نفسها بتعديل ثوب السباحة الذي كان يتأرجح معها وهي تمضي مسرعةً، لم تكترث للآخرين، وما قد يمكن أن يشاهدوه من جسدها.

في المستشفى مع العمّة إيلي، يغلق عينيه متخيّلاً فراني، في وضعيّات حميمة في منطقة الكثبان، فراني تصعد وتهبط برتمٍ واحد مثل هجمةٍ من أمواجٍ دافئة، صورةٌ أمطرت مخيّلته بعنفٍ دون هوادة، خيّل له أنّها منسوجةٌ من جلد حيوان يبرق تحت ضوء القمر، وتتعكّر هذه الصورة الجلية كلما سمع الضجيج المتتالي من حوله، فتتداخل الصور دافعة إيّاه للتساؤل: ماذا يعرفون هم عن الألم.. عن ألم العمّة إيلي؟

ولم يتكلّم أحدٌ في هذه الأثناء، ولا حتّى والده.

"بم تفكّر؟" سألت والدته وهما يخرجان من الغرفة

"أفكّر بغبائي!" أجاب والده.

"لم تقول هذا؟"

"لا أدري"

لم يقدر أحد على فهم السرعة التي تدهور بها حال العمّة بين صباح ومساء هذه الأيّام، أمر أشبه بالرعب أو التحدّي. بغض النّظر عن مبالغاتها الواضحة لاسيما عندما تقول ما هو أصيل!!

"إنّني أحبك... رغم كلّ شيء لكنّني لا زلت أحبّك" قالت وهي تنظر إلى أبيه.

"لكن ما الذي فعلته أنا لكِ؟"

"ماذا فعلت أنت؟؟؟ كنت دائماً تخجل بي، ثمّ تركتني وحيدةً في هذه القرية القذرة، هذا ما فعلته بي، وأنا أريدك أن تتعذّب كما عذّبتني"

أصابها الندم مما قالت، ثم صمتت.

سحبت يدها من تحت الغطاء، وهي تشعر بالبرد ومدّتها لأبيه، التقطها وأمسك بها على الفور وهو جريح وخجول وأحمر كالقرميد، وفي بضع لحظات عن طريق التلامس والنظرات مسحت له كلّ ما تلفّظت به للتو، وحاولت الانشغال بأمر آخر، أجاب والده بنبرة طبيعيّة: "هل تريدين النظر من الشبّاك، يمكننا تقريب السرير إن شئتِ".

حركوا السرير باتجاه الشباك بعد أن قبلت، وبدا الأمر كأنّه الخطوة التالية من النهار، خطوة تنسي العمّة إيلي معاناتها.

أغمض عينيه قليلاً ليكتشف أن دماغه تحوّل إلى سينما سوداء صامتة تفصل مشاعره عن أفكاره كليّاً.

توفّيت في المساء الثالث، ظلّت نائمة ببساطة، واكتشفوا موتها بعد عشرين دقيقة من الاعتناء بها، كأنّها تغطّ في نومها كالعادة.

كلّ شيءٍ أضحى بعيداً، حرارة الشمس وأصوات الأمواج من شرفة البيت الصيفي الذي استأجروه لقضاء الإجازة. كلّ واحد منهم بدا وحيداً، رغم أنهم لم يفترقوا في ذلك اليوم، لكنّ جداراً جبسيّاً وهميّاً كان يفصل بينهم، والكلمات في الأحاديث المشتركة طفت في الهواء عائمة، أصواتهم قاتمة مقتنعة تماماً بالموت، وحركاتهم متضامنة.

أبلغ والده أنه يريد الخروج لكي يتمشّى، أرسل رسالة من هاتفه لريفيرو، وأخرى لتيخاس، كانوا في الرصيف البحري.

انتابته رغبة في أن يستطيع الوثوق بأصدقائه، لكنّه يدرك أنّهم ليسوا أصدقاء له، فلم ينوِ إخبارهم بأي شيء.

ثلاثة أيّام بقيت لانتهاء الصّيف، قبل الخروج من المنزل حبس نفسه في الحمّام محاولاً البكاء دون جدوى، شعر أن ما سينقذه فعلاً هو عزة نفسه، وعدم إخبار الفتية بوفاة العمّة إيلي، ملأ هذا القرار كيانه كما لو أنّه اكتشاف خارجٌ عن الواقع، يحتاج إلى الانتباه والتركيز.

بابلو، ماركوس، تيخاس وريفيرو تغيّروا بعض الشيء هم أيضاً، هذا ما اكتشفه لدى الالتقاء بهم على الرصيف البحري، ازداد نفاقهم ودهاؤهم، هو حتّى ذلك الحين لطالما عرف حدود ذكائه، لكنّه الآن يشعر بأن قدراته العقلية تتناقص وتتضاءل أمامهم. وفجأة وجد أن ريفيرو جميل وقوي إلى حد أسطوري.

"أين كنتِ أيّتها الأميرة؟؟؟ لم نشاهدكِ منذ خمسة أيام؟؟"

"في المستشفى"

سيسألونه الآن لماذا... كيف سيجيب؟؟

"لماذا؟"

"إنّها عمّتي!! لقد ماتت هذا المساء"

بصق تيخاس

"ربّاه" علّق بابلو

"مات والد هذا منذ شهرين أيضاً في سفرةٍ مشؤومة – قال وهو يشير إلى ماركوس – كان رجلاً مقرفاً".

"كان دائماً رجلاً مقرفاً، أمّا الآن فهو رجلٌ مقرفٌ وميّت" علّق تيخاس.

لم يتفوّه ماركوس بكلمة واحدة، جلس وهو ينظر إلى البحر موافقاً ضمنيّاً على المحادثة، دون الرغبة بالدخول في تفاصيلها، استطاع في هذه اللحظة رؤية الطفل الحسّاس داخل ماركوس، الذي تصرف دائماً بجديّة وقلّة كلام ناضجين.

"وجدوه في الساقية، يبدو أنّه علق فترة من الزمن في البحر حتّى قذف به باتجاه الشاطئ... حتّى البحر لم يكن يحبّه"، قال تيخاس.

ابتسم ماركوس.

مكث معهم حوالي الساعتين في ذلك المساء، ورغم أنهم لم يعودوا إلى موضوع الموت، انتابه إحساس غريب وغدت عيونه صفراء اللون لامعة تماماً كالكثبان والصنوبر. للصبية طريقة في التعبير والسخرية قاسية وحزينة لم يرَ مثلها قط، لم يفهم لم كان هو معميّاً بالجهل إلى هذا الحدّ. طريقتهم في فهم الموت بدت مسليّة ولا تختلف عن تلك التي فهموا من خلالها الجنس. الموت لديهم رحلة مشروعة، يمكنهم الانتقال في ربوعها بحريّة والحديث عن تفاصيلها ووصفها حتّى، وأيضاً تمنّيها للآخرين والخوف منها، لكن لم يكن بمقدورهم إيجاد أي معنىً مفهوم لها. كالمستقبل الذي كان بالنسبة لهم مجرّداً من المعنى. بابلو وماركوس وتيخاس وريفيرو لم يمتلكوا أي فهم لما هو أبعد من يومهم.

هم الأمراء في قريتهم الرثّة التي تعيش صيفاً وتموت شتاءً. أصبحوا رجالاً، أو ناضجين على طريقتهم تلك... ذكوراً منتصرين.

أربعتهم يشبهون أخاً افتراضيّاً أو تخيّليّاً لطالما حلم به، يحسن فهم الحياة وجوانبها المظلمة، ويتمتّع بالتفاؤل في أشدّ اللحظات صعوبة.

لم يشعر أنه مخدوع معهم، ساروا باتّجاه البحر، وفي الطريق رغب لو أنّ أحداً ما يراقبهم من بعيد، يتأملهم جميعاً من ثقب صغير ويقول: لا أريد أن أصادف هؤلاء ليلاً في شارع فرعيّ.

أحد ما راقبهم فعلاً، دون أن يتعرّفوا عليه من بعيد، ولمّا اقترب منهم تبيّن له أنّها الفتاة المعوّقة، والتي جلست مع باقي الفتيات في الساقية، رسولة العصا. تمشي لوحدها بزيّ السباحة، قدماها مبلّلتان ومليئتان برمل البحر، حاملةً طوّافتها الضخمة وهي مازالت منفوخة، شعر هو بالحياء؛ لأنّه تصوّر أنّ هذه الفتاة تعرف عنه أموراً شخصيّةً وخاصّة، فهي التي كانت شاهدةً على الحدث السرّي الذي - ومن المؤكّد - شُرح بتفاصيله المهينة.

وقفت في وجههم

"أين تذهبين يا ماريتا؟"، سألها ريفيرو

"إلى البيت"، أجابت وهي تنظر إليه بثبات

"هل تعرفان بعضكما؟" سأل ريفيرو

"بالطبع.. فهو عشيق فراني"، وهي تشير إليه

"أحقاً ما تقولين؟"، علّق تيخاس

"قالت فراني إنه داعبها قرب الكثبان.. ماذا تسمّي هذا؟"

وهي تشرح بحجّة لا نقاش فيها وبعدائيّة المنتصر، ما لم يترك مجالاً للشك لدى أحد، خصوصاً بسبب نظراتها اللاسعة والمتحدية.

"حقّاً، مع الأميرة؟"

"وماذا عنك يا ماريتا؟ كم عشيقاً لديك في هذا الصيف؟"

"اثنان"

"وهل هم جيدون أم سيئون؟"

"أحدهم سيئ والآخر جيّد"

"ونحن؟"، سأل ريفيرو

"أنتم سيّئون!"، أجابته بجديّة

ثم شاهدوها تمضي بكل فخرٍ إلى البيوت المنخفضة الموجودة بعد السّاقية، كأنها ممثّلة تمشي بدلال على السجّادة الحمراء يوم افتتاح العرض.

"انظر لها، إنّها تحب مضاجعة الشبّان أكثر من حبّها للطعام" علّق تيخاس.

"هذا إلى حين أن تتزوج، وبعدها ستحدث المصيبة".

"إنّي أتضرّع إليك أيها الرّب الذي في السموات، أن تسمع صوتي الذي يناجيك بالمغفرة والسمح، من هذا الذي يقاوم عفوك؟ أنت يا منبع الرّحمة".

التفت إلى يساره قليلاً فوجد الناس مجتمعين، لم يتجاوزوا العشرة أشخاصٍ والداه وأنيتا وخمسة أو ستّة أصدقاءٍ للعمّة إيلي، وهذا لا يعتبر اجتماعاً بحق.

اضطرّوا إلى الذهاب هم أنفسهم إلى السوق في الصباح لشراء الملابس، فهم لم يحضروا معهم من المدينة سوى ملابس السباحة وقمصان البحر، حدث شراء الملابس كان مزعجاً للجميع بحد ذاته. فمن شبه المستحيل أن يجدوا ما يناسب الحداد في المحلّات السياحية القليلة المنتشرة في القرية، بل على العكس؛ جميع الملابس بيضٌ وفرحة.

"سنرتدي ملابس بيض، هذا كان ليعجب العمّة إيلي" علّقت والدته.

"سنظهر كأننا في عرسٍ لا في مأتم" قال والده، وفعلاً ظهروا لاحقاً كذلك.

لم تنم أنيتا طوال الّليل وحلمت بالعمّة إيلي، فغادرت سريرها وأيقظته

"لا أستطيع النوم... إنّي خائفة!"

"ما الذي يخيفك؟"

"العمّة إيلي"

يداها أشبه بقطعتين قطنيتين صغيرتين معلّقتين على طرفيّ ثوبها الأبيض الذي لن تلبسه بعد ذلك على الأرجح. بعيداً عن عمرها فإنّ أنيتا طوّرت أسلوباً غامضاً ودقيقاً لتكون أقرب إلى الخرافة من الواقع.

في الجنازة طلب والده فتح التابوت للمرة الأخيرة، وهناك شاهدوا وجه العمّة إيلي، والتفوا حولها كما لو أنها كانت بئراً، وجهها بدا كزهرة دوّار شمسٍ بدينة، شاحباً وطرياً. فكرّ في قرارة نفسه: "لقد ماتت فعلاً... إنّها حقيقة".

التابوت جميلٌ ومطليّ باللون البني العسلي كقطعة ضخمة من السكاكر، أنزلوه من السيارة واقترب الجميع للمساعدة، لكن الأمر لم يكن ضروريّاً؛ لأن للتابوت عجلات، ولأن سائقي السيّارة تكفّلوا بحمله من الكنيسة إلى المقبرة المجاورة بحرفية عالية، وبمساعدة أدوات خاصة شغلت الجميع عن التابوت نفسه، وهم يتأملون تلك التقنيات المثيرة.

"إن روحي تبحث عنك أيها الرب كما تبحث الظبية عن ينبوع الماء، روحي ظمئة للقياك أيها الرّب الحي فينا، متى سأدخل لأراك؟"

اشتم روائح اهتزاز الكلمات الصادرة عنهم دون الكثير من الأحاسيس، فهو منذ الأمس لم يشعر إلّا بالتضامن مع أنيتا، أمسك يدها خلال الجنازة التي تقدمت ببطء نحو القبر، باقي الحشد انغمس في تفكير عميق، لقد كانوا في الصف الأول مرتبين بشكل غير منتظم، أمّا في الصف الأخير فتكاتف أصدقاء العمّة إيلي وارتصّوا مع بعضهم البعض.

سار الكاهن خلف التابوت بتقوى، واسترق الجميع النظرات إلى القبور من حولهم. بينما هو لم ينفك يرى نفسه في مشهد مركّب أُعدّ مسبقاً كمسرحية مرتبة، يحس بموت العمّة تارةً، ثم يعود ليشعر بأن الأمر معدٌّ وفرح، وبعدها تعود الجديّة خالية من الأحاسيس.

خيّل إليه أن أحداً ما بين الحين والآخر كان يقاطع عمداً، هذا العرض الرّاقص دون أي تبرير، التبرير الوحيد هو: أن العرض انتهى.

ردّد والده: "نسلّمك أيتها الأخت العزيزة إيلي إلى الله القاهر الذي خلقك، لتعودي إليه كما كوّنك من الطين ومن التراب".

ثم وضعوا تيجان الزهور على القبر، وبما أنها لم تتسع في الحفرة اضطرّوا إلى ضغطها قليلاً ففقدت أناقتها على الفور.

ثم أضاف: "والآن وقد انفصلت روحك عن جسدك ستصعد لملاقاة الملائكة، ستصعد ليستقبلها جيش الشهداء الكرام وستحشد مع جموع المغفور لهم لتستقبل روحك جوقات العذارى المكلّلات بالزهور في صدر الراحة الأبدية، ليحموك من الظلام ومن لهب النار ومن أن يصيبك العذاب، فليقهر الشيطان ويستسلم في محاكمتك المصحوبة بالملائكة، وليهرب إلى فوضى الليل الحالك.... آمين".

أنيتا كانت أول من رمى حفنة من التراب، منفّذةً تعليمات أمها. ثم تبعها والداه وأصدقاء العمّة إيلي، ثم نظروا إليه وهو يمشي باتجاه كومة التراب المجاورة للحفرة، فشعر أن روح العمّة إيلي تطفوا وتطوف فوق رؤوسهم للمرّة الأولى منذ أن ماتت، كأنّها تسلّلت من القبر وراحت تطير بين الأشجار في هواء المقبرة، مشتاقة إلى نفسها، ما دفعه إلى التفكير: "ستأتي الآن وسأشعر بالألم"، وبقي ساكناً لبرهة لكنّ شيئاً لم يأتِ إلّا المضايقة.

تذكّر جيّداً شعور المضايقة الذي أحس بـه في يديـه وهـو يحـزم الأمتعـة خلال ذلك المساء، في بيت عمته، البيت الذي لن يعود إليه ثانيةً، وأصوات الكثبان الرقيقة التي سمعها من الـشرفة، دخلـت أمّـه وقبلتـه بلطـف علىٰ وجنته. لم يشأ هذا اليوم الانتهاء، حيث بدا المساء طويلاً والأضـواء بيـضاء عاموديّة أيضاً. كان حداداً ناصعاً وقاتماً في آنٍ معاً. لم يتكلّموا في ذاك اليوم، بدوا كأنهم انتقلوا إلىٰ الشتاء فجأةً، وأثقل كـلٌّ مـنهم في همومـه والتزاماتـه الشخصية. بأفواه مقفلة تواصلوا مع بعضهم البعض، عاشوا مـوت العمّـة إيلي بتكاتفٍ لكن كلّ بأسلوبه.

بدأ يشعر بموتها عندما كان يجمّع أغراضه لوضعها في الحقيبة، شيءٌ مـن الإثارة عديمة الجدوىٰ، الممزوجة بالقهر. أحسّ بأنّه مخدوع، ليس من قبـل والديه بالتحديد، إنّما من قبل الجميع. استوقفته هذه الفكـرة وراح يتأملهـا كالمجنون. بعد لحظات خجل من عدم قدرته علىٰ الفهـم، مـا الـذي فهمـه حتّىٰ الآن؟ لم يمتلك أي جواب. الخداع ربّما، تلـك الـريح التـي عـصفت بكلّ شيء، وأودت به إلىٰ زاوية الوجود. أراد فجأة أن يُمارَس عليه العنـف، أن تبتلعه هذه الكثبان بقضمة واحدة شرهة، كما حدث مع عمّته.

انتهىٰ الصيف، سيركبون قطار العودة غداً إلىٰ المدينة، لكن هـل سـينتهي كل هذا ببساطة؟ لا يمكن أن يكون الأمر هكذا!

كتب رسالة لريفيرو: سأرحل غداً، هل نلتقي مساءً؟

تم إرسال الرسالة وخرج الظرف المرسل مـن شاشـة هاتفـه الـصغيرة، وبعد ثوانٍ قليلة: بالطبع أيتها الأميرة.

أراد أن يشرب الخمر، وأن يتعاطىٰ المخدّرات، أن يفعل أي شيء يدفعـه إلىٰ الأمـام. ضـايقته كثـيراً طريقـة والديـه في عـيش الألم، حـذرٌ وضـعفٌ وانكسار... بكىٰ والده قليلاً علىٰ الشرفة، وراقبه هو من شبّاك غرفته، تأمل

تشنجات ظهره المنتظمة وهو يسحب أنفاسه إلى الوراء، وجهه لم يكن واضحاً لكن التجاعيد فيه مرئية من البعيد، لم تتغير نظرته عن تلك التي رافقته في المقبرة. أمّا هو، فبروده سبب له عدم الارتياح، كأن أحداً حقنه بفيروسٍ أكسبه مناعة وحصانة عجيبين. في الواقع لم يشعر بشيءٍ أبداً، وعدم الشعور هذا بحد ذاته كان حالة تدعو إلى الانزعاج والقلق.

عاش الساعات الثلاث تلك كأن أمراً ما كان يعدّ له، أو كأنه سيُقدِم على فعل أشياء جديدة لم تخرج من مخيلته إلى حيّز الواقع قط.

لم يكن راضياً عمّا عاشه من حياته حتّى الآن، رغم البراعة التي تحلّى بها، قرّر أن يجرّب البرود فيما سيأتي من الأيام، وأن يكون أكثر ليونة. كانت هذه الأفكار تعجبه كغيمة تدخل رأسه وتستقر فيه، كما دخلت صورة العمّة إيلي إلى رأسه عندما فتحوا التابوت.

"لكن أحقاً ستخرج؟" سألت أمه

"نعم"

"كيف باستطاعتك فعل ذلك؟"

تبقت لديه بعض ردّات الفعل الطفولية، لكنّه استدركها خوفاً من أن لا يدعوه يخرج.

"سأخرج قليلاً فقط"

"دعيه يفعل ما يشاء" علّق أبوه

بعد أن خرج إلى الشارع تضاعف الشعور بالبرود لديه، رأى نفسه كمكعّب من الثلج، لاسيما أن أنيتا كانت قد رافقته إلى الباب طالبة منه اصطحابها، لكنه أزاحها من طريقه دون أن يجيبها.

"قل لي فقط أين أنت ذاهب"

"ابتعدي".

اجتمع بالصبية عندما حلّ الليل، و بما أنه يوم السبت فالحانات مليئة بالناس، وتشكل خطّاً طولياً على الشاطئ كأنها قاربٌ عملاق مصنوعٌ من الأضواء يعبر البحر ليلاً.

"غرق هنا طفلٌ في الصيف الماضي" قال ريفيرو

لم يتأنق أحد ليلتها سواه، هذا ما دفعه للشعور بالسخافة، كما لو أنه متنكّر بزيّ بحار، والجميع من حوله يرتدون ثياباً مريحة. لم يعلّق أحد على ما قاله ريفيرو

"سترحل غداً إذاً؟"

"أجل يوم غدٍ"

"حسناً إذاً، لابد من أن نحتفل بوداعك"

"لا ضرورة لذلك"

"بلى طبعاً، كيف لا وأنتِ الأميرة التي كانت تريد كسر أنوفنا بحجر"

ضحك الجميع. عادةً ما كان يضحك للمسايرة، وهو يشعر بالإهانة؛ لأنه فتىً مهذب جداً في قرارة نفسه، فتىً يعجب الجميع ويخشى من أن لا يعجب الناس، شخصيته مبنية تقريباً على هذه الثنائية.

فهم في هذه اللحظة حقيقة أن كل ما صنعه في حياته كان له هدفٌ واحد: ألا وهو أن يعجب الآخرين، أو يصاب بالرعب من أن لا يعجبهم. إلّا أن هذا سيتغير الآن، فبعد وفاة العمّة إيلي لم يشعر بضرورة ملاطفة أحد، ولا حتّى مراعاة ذاته هو، فما بالك مع بابلو وتيخاس وماركوس وريفيرو. وفوقها شعر بأنه لم يعد يحترمهم كثيراً.. فالجو أصبح متوتّراً ولم يعد مسلياً كما كان.

ابتاعوا زجاجة من الشراب وجلسوا في الساقية، وأحضر تيخاس بعض المخدرات فتناولوها أيضاً، وبدأ العنف الحقيقي من هنا بخجل، كأن دمه

يختلط بدمهم هناك، امتزج الكحول بالمخدّرات في رأسه لكنّه لم يشعر بالثقل، إنّما بالبرود الواثق، كصياد يسيطر على ثمالته وعلى بندقيته بقوة.

"ألن تودّع فراني؟"

"اتركه يا رجل، ألا ترى أنه عذراء أكثر من فتاة في الخامسة؟؟؟ استخدمته فراني مرّة واحدة.. هي لم تعرف حتّى كيف ستبدأ معه"

كانوا هم عالقين في مخالب الشدّة، نهضوا من رمل البحر ليقفوا قرب الساقية، صعدت المخدّرات إلى رؤوسهم أكثر كماء النّار، رمى ماركوس زجاجة نحو الماء ثم التقط واحدة أخرى.

"هل ترون هذا القارب هناك؟"

ورمى بالزجاجة الثانية بقوة، فارتطمت بالرصيف

"اصمت، لا تكررها من جديد"

"الأمر سينتهي اليوم والليلة" قالها بحزم

أتى جوابه متأخراً قليلاً، سافر هذا الجواب في أعصاب جسمه كلّها، ومرّ بمعدته ودماغه. بدت كأنها رؤيا أكثر من كونها جواباً أو فكرةً. رؤيا غامضة في وسط هذا الليل الذي تسقط دقائقه في الظلام... (إن الأمر سينتهي اليوم والليلة).

"ما الذي سينتهي الليلة؟"

"سأمارس الجنس الليلة"

"لكن مع من؟ مع فراني؟"

"لا يهم.. مع أية فتاة"

انتصب كبطل أسطوري ووقف في وجه البحر كما لو أنه يواجه جيشاً متأججاً، ينقصه فقط بعض الموت والنبل من حوله لمآزرته في حملته متعدّدة

الأبعاد هذه، والتي انفكّت للحظات عن فكرة المضاجعة واتصلت بشكل وثيق بالتملك.

"لابد من إيجاد الفتيات" قال بابلو

"كُنَّ في أحد المقاهي"

"هيا بنا".

مضوا بصمت كلٌّ يغوص في أعماقه، حتّىٰ أن طبيعة القرية الفيزيائية خضعت لتغير ما، تراءىٰ له أن جميع الناس الجالسين في المقاهي والحانات، والناس الواقفين قرب الساقية والذين يمشون في الشارع، والناظرين من الشبابيك المضاءة، جميعهم خاضعون الرغبة والإحساس ذاتهما، معذبون بلا حدود وعديمو الكرامة. حتّىٰ لو أنكروا ذلك وقدّموا له الحجج والأطروحات، جميعهم خاضعون لحالة الانسعار العصبية تلك.

فجأة انتابه شعورٌ بأنه قائد المجموعة للمرة الأولىٰ، وأن جسمه عبارة عن أقنية من الغضب. ضحك ماركوس بتوتر ووضع ريفيرو يده علىٰ كتفه واصلاً إياه بشحنة من توتر عالٍ.

لكنّ الفتيات لم يَكنَّ في أي من المقاهي التي اعتدن الجلوس فيها.

"أين علّهن يجلسن؟؟؟ حمقاوات"

"أين سيذهبن.. لابد أن نجدهنّ"

مسعورون بالرغبة بحثوا عنهنّ ساعة كاملة، وهم يحاولون بائسين التعرف علىٰ مجموعات أخرىٰ من الفتيات في الحانات، وكانوا علىٰ وشك افتعال مشكلة كبيرة في أحد الأماكن التي طردوا منها في النهاية، امتزجت الشهوة بالحقيقة، أما الخوف فلم يكن حاضراً... بل كان شعوراً متجمّداً مترفعاً عنهم.

"هيّا نذهب إلىٰ الساقية، ونشعل النار في أحد الزوارق" قال بابلو

وفي طريقهم شاهدوا من بعيد ظلًّا مضطرباً يمشي نحوهم في الظلمة "إنها ماريتا"

لمعت الأضواء على بلاطات الأرضية البيضاء وعلى أجسامهم، أما الرصيف البحري فبدا كأنه مئات الأرصفة المتجاورة. مشوا باتجاه الكثبان وهم ينظرون إلى أقدام ماريتا البدينة والضخمة من الخلف، ترتدي تنورة حمراء وفوقها قميصٌ أزرق لا يليق بها نهائياً. تمشي بهجومية، لا تبدو شخصاً عادياً، إنها كأسطوانة من اللحم تنتفخ هنا وهناك. لم يتذكر هو المشهد كثيراً، كان يمشي خلفها، ثم مشى بجانبها... هل كان هو من تقدم أم هي؟؟ خلال هذا الحدث لم يكن الشبان هناك.. ثم نظر إليها وكان فمها مطفأً كما لم يكن أبداً من قبل، كصوت موسيقا بطيئة في ذلك الوجه غير المتناسق، لكن الذكرى في معظم الأحيان تتكون من المشاعر لا من الصور، الأغصان والنباتات في ذاكرته خبأت خضاراً كثيفاً، وخلفها قوانين خارجية ذات خصوصية فريدة. كأن العالم بأجمعه سبَّب انعطافاً حادّاً في ذاكرته، لم يمكنه من المضي قدماً، أو أن الأخطاء والقواعد كلّها بقيت حبيسة هناك وتفاعلت في قارورةٍ مخبرية أنتجت حالة من الضياع. قلبه في الذاكرة كان بارداً، كبطل سينمائي يدرك أن شخصيته لم يتبقَّ لها الكثير من أيام الحياة.

والغريب أيضاً أنه لم يعرف إذا مانعت ماريتا ذلك أم لا... ببساطة مُسحت ذاكرته، ولم يعرف ماذا قالوا لها بالتحديد، هل هو من غير اتجاه سيرها نحو الكثبان؟؟ أم أنه كان أحد آخر من الفتية؟؟ لابد من أن يتكلم أحدهم، أن يلقي بدعابة أو أن يطلق كذبة ما... حتّى هذا لم يستطع تذكّره. يعرف أمراً واحداً، أن ريفيرو-ليلتها وعندما كانوا يمشون باتجاه الكثبان أخبر ماريتا بقصة مسلية حول قرود هربوا من حديقة الحيوانات وأطلقوا

ثورة، ساعدت فيها هذه القردة بعضها على الفرار من الحديقة، ثم ملؤوا المدينة بصراخهم.

"هل تستطيعين تصديق ذلك؟"

"لِمَ لا تقصها علي مرّة ثانية"

أحبت أنيتا القصص وأن يروي لها الناس حكايات تبحث عنها فيما بعد على الإنترنت، لكنّها لن تجد قطعاً رواية ريفيرو عن ثورة القردة... أعاد قصّها عليها ثانيةً.

"هل تصدقين؟؟ قفزوا جميعهم... مئات القردة تقفز هنا وهناك تسرق طعام الأطفال وتضايق الناس في الشوارع" تضحك ماريتا.

ثم إن هناك فجوةً أخرى في ذاكرته، في القفزة الأخيرة المؤدية إلى الكثبان، فجأة كان الستة يمشون بين الصنوبر بصمت يسمعون أصوات الموج تقترب، وعندما جلسوا بدأ كل شيء. قال ريفيرو:

"هيا يا ماريتا، انزعي ملابسكِ لنري هؤلاء كيف تتقنين المضاجعة.. مثل ذلك اليوم تماماً.. أتذكرين؟"

"لا أريد"

حسبما يتذكّر، فإنّ العنف لم يبدأ في هذه النقطة، بل إن كل الأحاديث حتّى الآن عادية ومتوقّعة، تذكّر أنهم أيضاً ضحكوا في لحظة ما.

ناضلت ماريتا قليلاً في البدء، ثم سقطت مع ريفيرو على الرمل، ساعدها بابلو وماركوس. يساعدانها على النهوض، وهي تتوقف عن الحركة كليّاً.

"ستتألمين أكثر في هذه الوضعية" قال ريفيرو وهو يخلع لها ثيابها.

لم يدرك ما رأى، وضاعت الذكرى مع الواقع، يذكر أنه توتر وأن أصوات الأمواج ظلّت تُسمع بنفس الوتيرة، كجسد ريفيرو الذي يعتدي

على ماريتا التي لا تصدر أي صوت، لم يتبخّر الإرهاب من ذاكرته. كان الإرهاب هو الصورة الوحيدة الراسخة في ذهنه عن تلك الليلة. إرهابٌ بارد وقاسٍ. نبضات قلبه تنتقل بأعجوبة إلى يديه.

ينهض ريفيرو ويحل بابلو، مكانه ويعاد المشهد ذاته، تهب رائحة بحرية عفنة، رائحة طحالب مكثّفة، لم تتمالكه نفسه فأبعد نظره عن أجسادهم القريبة جدّاً منه، وراح يتأمل القصب الذي علقوا عليه ثياب ماريتا، أزرار تنورتها تبرق كعيون الأسماك، وسروالها الداخلي أزرق وعليه رسوم يصعب فهمها.

شارف بابلو على الانتهاء، وحان دور تيخاس. العملية ذاتها من جديد لكن هذه المرة امتدّت زمناً أكبر، انقضّ تيخاس على ماريتا كولدٍ عنيدٍ يريد كسر لعبة لا تكسر. هبت ريح من طرف الصنوبر، واختلط صوتها بصوت اللحم المتضارب بينهم.

"هيّا يا رجل"

"اتركني أيها الغبي"

أمّا هو فبدا جامداً كشبحٍ يحاول التحول إلى مادّة ملموسة، يبحث عن إمكانية الحركة، أو التسلل مجدّداً إلى الشاطئ، يتلفت حوله عبثاً... يحاول تذكّر أي شيءٍ، أي اسم... يعاود النظر إليهم فتختلط الأمور أكثر وتتعقّد...

جاء دور ماركوس، لكنّه في وقت التبديل المستقطع استطاع رؤية وجه ماريتا لثانية واحدة. سيأتي دوره لاحقاً... فكّر باشمئزاز وتململ، لم يسبق له أن أصيب بهما، كما لم يصب بالألم والغياب إلى هذه الدرجة من قبل.

صرخت ماريتا للمرة الأولى: "أنت تؤذيني"

لكن ريفيرو وبابلو وتيخاس كانوا شبه غائبين بما أنهم قد أنهوا مهامهم.

"لا تؤذها" قال ريفيرو

انتهىٰ ماركوس ولبس سرواله من جديد، وقد حان دوره.. تقدّم وأخفض سرواله دون إثارة، ثم ودون قصد شعر بإثارة فجائية... ربما كان الخوف هو السبب.. أو أنه انجذب حقّاً؟ ودون قصد كمن يتعثّر دون قصد.. أو من يقع في الغرام دون قصد.. ولمّا جلس فوقها أحس بالرطوبة، وقرر التظاهر بأنه يفعلها. وأن يقلّد الآخرين بالأصوات التي أصدروها، قراره مفاجئ مثل من يفكّر في أن يغش أثناء اللعب، ويقفز فوق القوانين. فهمت ماريتا ذلك علىٰ الفور ونظرت إليه علىٰ خلاف ما فعلت مع البقية، بعيون مصطنعة كأنها تخترقه لتراقب بعناية ما هو خلفه في البعيد. وضع هو يده علىٰ كتفها مستنداً من شدّة التعب، ثم أحس أنه يستند إلىٰ شيء ما، أداة يمتلكها لنفسه. في ذاكرته صورة مميزة عن جسد ماريتا... مليئة بالعظام واللحم والدم والأحشاء أيضاً. أراد أن يهمس لها بما هو لطيف، لم يعرف ما هو. الاعتذار لها ربما عمّا يفعله حتّىٰ لو لم يكن فعلاً يقوم به. لكن ملامحها طُمست وخيل له أنها لن تسمع أو أنها ليست هناك... وخيّل له أيضاً أنها فتاة طبيعية. وأنّه هو أيضاً طبيعي.

اكتشف أمراً صريحاً يكتسيه الحنين، أن باستطاعته الآن إطلاقها، ادّعىٰ النهاية ووقف ببضع تشنجات كالآخرين.

نهضت ماريتا وارتدت ثيابها.

"ها قد انتهينا جميعاً" علّق ريفيرو.

يذكر أن لحظات من الصمت سادت قبل أن يخاطبه تيخاس ممازحاً:

"حسناً أيتها الأميرة... ما رأيكِ بحفلة الوداع؟".

لكن أحداً لم يعجب بالدعابة، بما فيهم ريفيرو.

طريق العودة أضحى أطول بكثير، ماريتا تمشي أمامهم باضطراب أكبر من ذي قبل، كأنها أرادت في كل خطوةٍ تخطوها أن تبتعد أكثر عنهم، دون أن يكتشفوها إلى أن تصل إلى مكان بعيدٍ جدّاً.

تقدّم ريفيرو بسرعة: "ماريتا"

"ماذا تريد؟"

"أنتِ تعرفين كم تهمينني!! اعتنيت بك مراتٍ عديدة، ألا تذكرين؟"

لا تجيبه

" أنت تعرفين يا ماريتا"

تجيب بصوتٍ متلاشٍ: "نعم"

"وتعرفين أنني لا أكذب أبداً"

"نعم"

"إذا أخبرت أحداً بما جرى، تعرفين أنني سأقطع عنقك... أليس كذلك؟"

"نعم"

وانقذفت كنابضٍ مشدود هاربة من الممر البحري بعد أن شكل سؤال ريفيرو الأخير ما يشبه إشارة الانطلاق في بطولةٍ للجري، وهرعت نحو البيوت المنخفضة وراء الساقية. أطرافها كانت ترقص وهي تركض.

حاول ماركوس اللحاق بها، لكن ريفيرو استوقفه على الفور: "اتركها تذهب... لن تخبر أحداً"

يتذكّر أن كلام ريفيرو الأخير شكّل الفاصل بين مرحلتين، في ذاكرته اضمحل الوجود بعد جملة ريفيرو، وتلاشى الممر المؤدي إلى الرصيف البحري والبيوت، وضوء المنارة، كما تلاشت أصوات الناس الذين كانوا لا يزالون يحيون ليلة السبت الصيفية، ولمعان الساقية، وتلاشت معهم

صلصلة الزوارق في الميناء... اختفى العالم من حوله وتحوّل إلى ضوءٍ رماديٍّ شاحب... لم يذكر إذا ما ودّع الفتية أم لا، مُسحت التفاصيل من رأسه كليّاً، وربّما كان هنالك ضوءٌ جديد في تلك الليلة.. ضوء نهارٍ جديد قد طلع على القرية.

تذكّر شيئاً واحداً في طريق عودته إلى البيت، هو أن للناس نظرةً نظيفة... ربّما يكون الصباح!.

لا يذكر وقت دخل البيت وسألته أمه عن غيابه: "هل تناولت الشراب؟"

"لا"

"لابد أنك فعلت أكثر من هذا... قل لي ماذا فعلت؟"، وتتبعه إلى غرفته

"أنا لم أفعل شيئاً".

الفصل الثاني

ذكرى أكتوبر

كان يقول:

"كالصيف الماضي... ملل بملل"

"كدت أغرق في البحر"

"توفّيت عمّتي، في نهاية الإجازة"

لم يفصح عن أي شيءٍ آخرَ.

تحوّل إلى شابٍّ مفكّر، لم يكن ذا شعبيّةٍ في صفّه من قبل، ولم يصبح كذلك حتّى في هذا العام الدراسي.

كانت قدرة مدريد على امتصاص الأشياء عجيبة، فلوميض إشارات المرور فعاليّة بالغة، عندما يختلط بنورها المشع ومساءاتها التي تنتزع الألم والتعاسة وتبتلعهما، بعد أن تحولهما إلى رقائق دقيقة وشفّافة.

إنها مدينةٌ تمتلئ معدتها بالحجارة.

والدته تعهّدت بمساعدة أبيه في هذه الأوقات العصيبة. أما والده أصبح صامتاً معظم الوقت، كأن وفاة العمة إيلي قد كسرت شيئاً ما في داخله. تدهورت صحته قليلاً، ظهر ألم مزمن في معدته بلا سبب أو مبرر لمدّة شهر كامل.

وعندما تحسن قليلاً صار عاطفيّاً أكثر.

"أنا أحبّكم كثيراً يا أبنائي" قال والده فجأة على مائدة العشاء، فصمت الجميع بشكل مزعج. لم يكن إعلاناً مبهجاً، أو محاولة لمسح الماضي، إنّما

رغبة في أن يتواجد معهم في الحاضر وفي المستقبل، بأن يتشاركوا الرحلة نفسها نحو الفراغ سويّةً. شعر بالأسف والمضايقة، إذ جعل الألم من أبيه شخصاً أقلّ صلابة.

في الأسبوع الأول منعه ذكاؤه من تذكّر ما حدث.

ثم بين يومٍ وثانٍ، تسلّل الخوف إليه.

يوم الأحد طلبت والدته منه النزول لإحضار الصحيفة، تمشّى مع أنيتا في الشارع. الطقس لا يزال جميلاً والناس في المطاعم والحانات. أنيتا راحت تتكلّم بدقة وجدية عن كرهها لزميلةٍ لها في الصف. جلسا على مقعد في الحديقة، لكنّه لم يعر حديث أنيتا أدنى أهمية، إذ غاص في ذاته لبرهة، ثم أحس بدوار شديد، استطاع أن يسمع ماء النافورة البعيدة في الحديقة وهو ينصب من الفوهة نازلاً في البحيرة، وصوت فقاعات الطين التي يحدثها الماء على الأطراف، وصوت جميع الأشجار وأصوات النّاس إلى حدٍّ لم يقدر أن يفهمه أو أن يفسّره... أشعره ذلك بالرّعب، نوع من الخوف لم ينتبه إليه قبلاً، يتصاعد بوتيرة حادّة... أراد القفز من مقعد الحديقة ورمي نفسه أمام أول سيارة يجدها في طريقه. سألته أنيتا إذا كان بحالة جيّدة: "تبدو أبيض اللون"

استخدمت أنيتا الألوان دائماً لتصف بها الحالات الانفعالية: (أبيض، أحمر، أخضر، أصفر).

"أعرف"

خلال الأسبوعين التاليين حدث معه الأمر ذاته ثلاث مرّات، لم يكن خوفاً مبرّراً، أو يمكن ردّه إلى سببٍ معين، إنّما كان خوفاً صرفاً.

لم يستطع التنبؤ به أو تفاديه، ينفجر فجأة كلّما شعر بضيقٍ، كنوبةٍ أو هجمة تأتيه على حين غرّة.

بدأ يتذكّر ماريتا، تأتيه صورها شيئاً فشيئاً في الليل، أو عندما يجلس في غرفته وهو يكتب واجباته المدرسية، يتأمل صفحات الكتاب بنظرة

مشلولة، ويظهر له وجهها، أو ما يعتقد أنه وجهها، يتذكّر الكثبان وماركوس، وتيخاس، وبابلو، وريفيرو تماماً كما يتذكّر جبنه وتقاعسه.

صورٌ عن مؤخرة ريفيرو وهي تتقلص وتصعد وتهبط دون أن يرى ماريتا فيها، بل رأى تحت ريفيرو شيئاً هشّاً وناعماً كالزجاج، أو كطفلةٍ صغيرة، وهذا الشيء مازال هناك وهو يريد الصراخ: "ماذا سأفعل الآن؟"... ثم يأتي التوتر، اهتزازاتٌ صمّاء ورغبةٌ في الذهاب إلى مسرح الحدث وسحب ريفيرو من ذراعه، ثم دفعه وربّما ضربه. وبعدها فليقتلوه من شدة الضرب، لا يهم...

ينهض من طاولته، ويتمشى في المنزل، ثم يفتح الخزانة ويلكم الحائط بقوّة، ويعاود لكمه مجدّداً، ومجدّداً محاولاً أن ينزل الدم من يده. وبعد الهيستيريا يأتي القلق والحزن، كانت روحه مشدودة كوترٍ تنقطع أليافه الداخلة في ثانية، ثم تعود لتشد مرة أخرى.

"أنا جبان"، نطق بصوت عالٍ دون أن تكون صفة عابرة يطلقها على نفسه، بل سمة أساسية متأصلة فيه، وجزءاً من حقيقته، ينظر إلى نفسه في المرآة ويقول: لستَ توماس، "أنت الجبان".

في الأسبوع الرابع أخذت الأمور منحىً أكثر دماراً، بدأ بحلمٍ راوده:

هو مع أنيتا في تلك القرية البحرية، سعيدين يتجاذبان أطراف حديث ما مجهول، ثم يأتي ريفيرو.

الجوّ حارٌّ جدّاً ورطب، يشبه الواقع إلى أبعد مدى، لم يكن وجود ريفيرو واضحاً في البداية إلى أن خاطب أنيتا:

"اخلعي ملابسك.. أنيتا"

ثم ينقضّ عليها، بينما يكون هو عاجزاً عن الحركة في الحلم، يقف على مقربةٍ منهما غير قادرٍ على فعل أي شيء.

أحـداث الحلـم بطيئـةٌ للغايـة، أنيتـا وريفـيرو كانـا معلّقـين في الـزمن كمنحوتتين، أمّا هـو فكـان محشوراً في هـواءٍ كثيـف ينظـر إلى ملامـح أنيتـا ممسوحة التعابير، عيونها الصغيرة كقطعتي نقود معدنيـة تقفـز مـع حركـات ريفيرو المنتظمة، مسبّبة له غصة مريرة تشعره أنه خسر كل شيءٍ... فيصحو.

حالة من الهيستيريا لا يمكن شرحهـا أو الحـديث عنهـا، استيقظ وهـو يصرخ في مرّة مـن المـرات، لـيرى أمّـه أمامـه بـشعرها الأشـعث وعيونهـا الناعسة تفوح منها رائحة النوم

"لكن، بماذا كنت تحلم؟ أخبرني"

لم يفعل أي شيء سوى البكـاء، جلـست والدتـه بـالقرب منـه وحاولـت معانقته، لكنّهما لم يتلامسا منذ مدّة، ما جعله يتوتّر أكثر. أحسّ أنه يهبط في وادٍ عميق، وكانت هذه المرة الأولى التي تراه أمّه يبكي فيها منذ أن أصبح يافعاً.

اختلجت في أعماقه مشاعر البؤس، وصلت إلى أماكن يجهلها، إلى كبـده مثلاً، وإلى معدته ودمه، إلى رئتيه وقلبه أيضاً. بؤسٌ ممزوج بالقرف مـن الألم والخجل الذي يتضاعف ويـزداد، خـصوصاً عنـدما يخطـر لـه أن فتـاة مـا ستعجب به في يومٍ من الأيام.

هنالك إحداهن تلاحقه قليلاً في صفّه، فتاةٌ تدعى لورديس، ذات جسدٍ صغير وناعم، لها أردافٌ تشبه أرداف الشباب. يعودان سـوية مـن المدرسـة في بعض الأحيان، فمنزلها مجاورٌ لبيته.

إنها جميلةٌ رغم كل شيء، لها ملامح حادّة، وغير مكتملـةٍ بعـد، شـفتاها كبيرتان وحساستان، لكنّ عينيها بريئتان وطفوليّتان، وهي مرتبكةٌ دومـاً في لعب دور المرأة. في الحقيقة لم يقلقه إحساس الرغبة تجـاه لـورديس نفـسها، إنها الرغبة باجتماع جَسِده بجسد أنثى هو الـذي كـان يثـير خوفـه. أرعبتـه الفتيات جميعهنّ، لورديس وغيرهـا، حتّـى النـاس التـي تمـشي في الـشارع

أثارت مخاوفه... فهي فعلتها دون شك في يومٍ ما... أو على الأقل فهي مليئةٌ بالرغبة الجامحة لفعلها. رأى العالم بصورة فظيعة.

عندما كان يخرج من المدرسة عائداً إلى البيت، ويرى لورديس واقفة بانتظاره يُثار ويتخيّل على الفور مادّة لزجة، ثم يتمشّيان سويّة وتبدأ هي بالحديث عن والديها وعن بعض الأصدقاء في الصف. أمّا هو فلا يستطيع التوقف عن التفكير في ذراعيها وفي صدرها الذي كانت تخفيه على نحوٍ جنوني، باستخدام قمصان ضيقة تولد الضغط إلى درجة مبالغ فيها. تمشي بمحاذاته برقّة وعناية، وهو يغلي من شدّة لوم الذات والقرف من نفسه؛ لأنه لا يستطيع مصارحتها بالرغبة التي تتحرك لديه تجاهها. تضحك لورديس وهو ينظر إلى فمها ويتأمل أسنانها البيضاء ومن خلفها لسانها الذي يتحرك بسرعة شديدة وهي تتكلم، يراقب حركة وجنتيها عندما تبتسم، وعندما تطيل الابتسام أيضاً، ثم تطبع على خدّه قبلة الوداع لدى وصولها إلى منزلها، كفراشةٍ ناريةٍ من لهبٍ على لحمه، ثم تصعد الدرجات القليلة المفضية إلى بيتها، كأنها تريد قتله وإطلاق الرصاصة الأخيرة عليه.

كان الألم هو الشيء الوحيد الواقعي الذي أحس به، من خلاله نظَّم جميع المسائل وفهم حدوده.

بدأ الأمر عندما كان نائماً وارتطم دون قصده بحافة السرير فجرح نفسه بأحد المسامير الخارجة من مكانها، انكمش جسده على الفور بحركة انعكاسية، آلمه ذلك بشدة وراح يتفحص فخذه والمسمار، كان خشب السرير قد افترق وخرج ذاك المسمار الطويل الأسود منه. ثم لاحقاً صار الأمر عبارةً عن روتين يوميّ: يستلقي على السرير ووجهه نحو الأعلى، ويقترب من ذاك المكان ببطءٍ حتى يلمس رأس المسمار فخذه، يقنع جسده بعدم إبداء أي رد فعل، ثم يضغط برجله على المسمار، الألم حقيقي ومركّز،

يستجيب له كامل الجسم بالتوتر، ثم يرتاح من شدّة الوجع، ويتلاشى الوهم. كل شيء واقعي ومتين، وبعدها يختفي الألم بالتدريج ولا يبقى ما هو مهم، تبقى فقط بقعة دمٍ مستديرة على بنطاله عليه أن يغسلها لاحقاً في الحمّام كي لا يفتضح أمره.

أصبح أيضاً يبكي من أسخف الأشياء، بكاء غريب هو الآخر.

"أنت أزرق اليوم" قالت أنيتا

"أزرق؟؟ كيف ذلك؟"

"أزرق" أصرّت

"أنا لست شخصاً جيّداً أنيتا، فعلت أشياء سيئة"

"آه لو كنت تعلم، أنا أيضاً فعلت أشياء سيئة" أجابت بجديّة

ثمّ أحس بأن شيئاً ما اخترق جسده بهدوء وحذر وأضعفه من الداخل، وبعدها انتابته فورةٌ من حزن مفاجئ، ثمّ يتكرر مشهد الكثبان بحدّة لا توصف، تتسلل التعاسة إليه أكثر من ذي قبل، أكثر حتّى من منظر ماريتا نفسها. ذهب إلى الحمام التقط المناديل وعضّ عليها بقوة إلى أنّ آلمه فكّه.

أصابه الزكام مع قدوم الخريف، لم يشأ أن يعتني به أحد، ولا أن يعدّوا له الحساء، أو أن يغطّوه وهو نائم. أنيتا تطل من الباب دون اقتراب؛ لئلا تصيبها العدوى، تحاول بنجاح إضحاكه، وتحمل له رسوماتها أو الحاسوب المحمول لمشاهدة فيلم ما، هو مستلقٍ على السرير وأنيتا جالسة على الأرض، واضعة منديلاً على فمها كسارقي البنوك.

كان أسبوعاً للنقاهة، وصادف أنّ عيد ميلاده جاء في هذا الأسبوع، أهدوه سترة جلدية سوداء أعجبته كثيراً في البداية، ثم وبعد أن فتحها وتأملها تراجعت الإثارة، وظنّ أنه سيبدو سخيفاً إذا ما ارتداها. إنّه منذ الصيف لم يعد يحب ما كان يحبّه، أو على الأقل لم يعد قادراً على التركيز فيه.

بدأ الزكام ينحسر، وبقـي وحيـداً في المنـزل في أحـد الأيـام، راح يفـتح أدراج الجميع بفضول ويتجول في المنزل، حتّى عثر على مفاتيح منزل العمّة إيلي في أحد أدراج مكتب أبيه. وعندما لمسها أصيب بصعقة كهربائية طفيفة عبرت جسده كاملاً. التقط المفاتيح وذهب بهـا إلى غرفتـه وأخـذ يسبح في أحلامه، حرّكت في داخله إغواءً لطالما أحسه تجاه الأشياء الخبيثة، كالسكيّن الذي جلبه مرة أحد زملاء صفه والذي يحمل شعار النازية، وادّعى أنه كان يخصّ ضابطاً ألمانياً قديماً، أمسك يومها بالسكين الصغيرة والثقيلة والمطليّـة باللون الأسود يتوسّطها صليب معقوف أبيض، وانتابه دوار غريـب، كـأن هذه السكين تطمس من يمسكها بالشر. شعر بإحساس مطابق حيـنما أخـذ مفاتيح منزل العمّة إيلي إلى سريره. المفاتيح أيضاً لهـا تـأثير النفـوذ والـشر، فبالكاد استطاع النوم يومها.

ضوءٌ أبيض، ثم آخر وردي وبعدها ظلال، ومن جديد الضوء الأبيض، ثم الوردي وبعدها الظلال... لكن الحافلة لم تتوقّـف... لم يكـن بمقـدوره التفكير بوضوح، كان لابد من محالفة الحظ أيضاً، كأن يجد مثلاً – كما حدث – في جارور والده ظرفاً فيه ثلاثمئة يـورو. أدرك أن النقـود سـتنفد قريبـاً، لكنّه رغم ذلك استيقظ صباحاً، وأخذ حقيبة المدرسة معه، لكنّه عوضاً عن الكتب والدفاتر ملأها بالثياب وعوضاً عن التوجّه إلى المدرسـة، توجّـه إلى محطة الباصات واستقلّ الحافلة، أخذ أيضاً النقود، وكان قد شفي تماماً مـن الزكام. انطلقت الحافلة بعد ثلاث ساعات وهو على متنها، مغمضاً عينيـه، ومتعجّباً من سهولة ما يفعله.

ضوءٌ أبيض، ثم وردي، ثم الظلال. هطل المطر في اليوم المـاضي فبـدت الحقول الريفية لماعة ونضرة.

كان قد ترك رسالة في المنزل مفادها أنه قد اضطر إلى الرحيل لبضعة أيـام، وأنّه قد أخذ النقود؛ لأنها تلزمه لفعـل أمـرٍ ضروري، فهـو لم يـشأ أن يـشغل

بالهم هناك. رغم أنه أحس أن الأمر طفوليٌّ قليلاً بعد أن كتبها بسرعة، فمزّقها وكتبها من جديد بنبرة أكثر توسّلاً، مؤكّداً فيها أنه محط ثقة، وأنّه سيعيد النقود لاحقاً حتّى لو اضطر إلى العمل وكسبها بتعبه. وقّعها وأضاف ملحوظة في أسفل الورقة مفادها أن هاتفه الجوال موجودٌ في غرفته.

الهرب كان خطته الوحيدة، وفي الطريق راح يفكّر بما سيفعله هناك، يبحث عن شيءٍ ذي مغزىً في تلك المغامرة. ندم قليلاً لأنه لم يأخذ ثياباً كافية تحميه من البرد، ثم هطل المطر من جديد. أراد ربّما رؤية البيت وحسب، دون أي شيءٍ آخر، في الواقع لم يعرف ماذا أراد بالتحديد، تملّكه إحساسٌ بالنشوة جرّاء الذهب إلى هناك، لكن هذا الإحساس أخذ يضمحل هو الآخر كلما اقتربت الحافلة أكثر من القرية.

حلّ المساء عندما وصلوا، بدت عليه التعاسة، وتطلّبه القليل من الجهد ليتذكر تفاصيل القرية التي كانت تشبه بيتاً خالياً من الأثاث، أصبحت القرية وهي فارغة من الناس أصغر حجماً، وباردةً جدّاً.

لّما دخل البيت اكتشف أن الكهرباء مقطوعة في الداخل، لم يشأ إصدار أي صوتٍ خوفاً من أن يكتشف الجيران وجوده هناك، وأخذ يجول في المنزل المعتم بخوف شديد، محاولاً الوصول إلى الشباك علّ فتحه يسمح بدخول بعض النور إلى الداخل. ارتطم بأحد الكراسي دون قصد فوقع شيء ما زجاجي على الأرض وتحطّم مصدراً صوتاً جافّاً، فعاد إلى الظلمة من جديد وأحسّ أن شبحاً ما تحرّك حوله، لم يأكل شيئاً منذ الصباح والرحلة أنهكت جسمه، فكّر بوالديه وحالتهم التي لابد أنها جنونية، وأنهم ربما قد أبلغوا الشرطة بغيابه، وفكّر بأنيتا، ربّما لن تستطيع النوم الليلة. كان البيت رطباً، وعندما اندسّ في السرير كانت الشراشف والبطانية شبه مبتلّة، تفوح منها رائحة قوية هي رائحة العمّة إيلي الشبيهة بالقرفة. دفن نفسه بين

البطانيات وتكور ليحتفظ بالدفء، شعر أنه ضعيفٌ ومكدّر كما لم يكن في حياته، غصةٌ في عنقه تشعره بالذنب، إلّا أنّه بدا رغم كل هذا ثابتاً، واثقاً من أن وجوده هناك كان ضرورياً. غطّ في نومٍ عميق، وراودته أحلام مرعبة وبيضاء... دون أية صور.

نهض في صباح اليوم التالي يتضوّر جوعاً، فتح شقّاً صغيراً في الشباك وتذكّر اليوم الصيفي الذي أتى فيه بصحبة أنيتا إلى هذا البيت، غاب خوف الليل وأضحى أمراً مسليّاً، ذكّره البيت بالصيف، كان بيتاً مملًّا فيه لوحات كبيرة من البورسلان، وصورٌ لوالده ولزوج عمّته وأخرى له ولأنيتا، أحس بالحنان في هذا البيت. هي المرة الأولى التي يحب فيها هذا المنزل، شعر أن حياة العمّة إيلي تستريح الآن هنا، جميع الأغراض من حوله لها، فاختبر أيضاً عالماً أنثويّاً لأوّل مرّة، رأى في الأغراض آلاف الروابط الحميمة... كموسوعة النساء العظيمات في التاريخ المرتبة على الرفوف، أو المطبخ النظيف والمرتّب، مروراً بالأثاث القديم الذي يبدو غير مستعمل لشدّة الاعتناء به، توضح له أن حياة العمّة إيلي في ذاك المنزل كانت حالة ذهنية، أشبه بزوبعة من التفاصيل المكثفة. ندم لأنه خلال حياتها لم يحبها كثيراً.

فكّر بالقرية بالطريقة نفسها، كانت الشمس ساطعة لكن البرد لا يزال قارساً، بردٌ رطبٌ ينبع من كل مكان. المحلات في القرية مقفلة والساقية بدت وسخة، مليئة بالإشنيّات والعصيّ والقوارير، وبعض النفايات البلاستيكية التي جلبتها الأمواج. القرية بدت كأن كارثة ما قد حلت بها، كما لو أن الناس تقاتلت مع بعضها طويلاً، ثم قررت الرحيل، أو كقوم بدائيين رحلوا عن الأرض بعد أن أصبحت قاحلة، أو احترقت أو تعرّضت لهجمةٍ من قوم غزاة آخرين. فإنّ الناس القليلة المتبقية هناك يغلب عليها الانهزام والغرق في التأمل، كمن نجا من سفينة غارقة، بطيئة الحياة كما كانت في الصيف، لكن الكسل حلّ محلّ الاحتفالات.

سأل الناس في القرية عن مدرسة ذوي الاحتياجات الخاصة دون أن يفهم أحد ما يقوله، ثم أرسلوه إلى الثانوية الاعتيادية وهناك شرحت له السكرتيرة عن المكان الذي يرتاده ذوو الاحتياجات الخاصة للتعلّم، وهي قاعات ممنوحةٌ من قبل البلدية موجودة على الطرف الآخر للقرية.

شارفت الساعة على التاسعة وبدأ الجو يصبح مشمساً وحارّاً نوعاً ما، واتجه هو بشيءٍ من الفرح الموتور نحو قاعات الدراسة تلك، وصل مع دخول الطلاب إلى الصفوف، وشاهدها من البعيد من بين عشرات الطلاب كظلّ وحيد وملوّن، لكن المشهد عندما اقترب اختلف تماماً عما توقع هو، إعاقات الطلاب متنوعة وهو لم يرَ في حياته هذا الكم من الشبان المتخلفين عقلياً، لم يكونوا جميعهم متشابهين، فبعضهم منكفئٌ ومحجم وآخرون يصرخون ويقفزون، كما أنه غير جاهز لسرعتهم وغضبهم وتحطمهم، تلاشت الفرحة الوهمية التي مشى بها نحوهم، وحل مكانها إحساس بالنقص وقلة الثقة بالنفس بالسخافة مما يريد فعله، دخل بينهم وهو ينظر إلى أمهاتهم الواقفات على الأطراف، غارقاً في ذاته لدرجة أنه شعر بأن جميع هذه النساء والمراهقين قد فقدوا خواصّهم تماماً، تلاشى فيهم كل ما يجعلهم معرّفين ومحددين، وتحولوا في لحظة إلى عطر ممل وشائع.

تقدّم في النهاية وسأل إحدى المعلمات عن ماريتا

"أنت أخوها أليس كذلك؟"

"نعم" أجاب دون معرفة السبب

"هذه الفتاة كارثة حقيقية، تأتي إلى المدرسة فقط عندما يحلو لها، وأنت تتحمل مسؤولية ذلك مع أبويك".

لم يلتق بها طوال اليوم الذي أمضاه وهو يجول القرية باحثاً عنها على أمل أن يجدها، أدرك أنه سيجدها إذا ما ذهب إلى البيوت المنخفضة القابعة قرب

الساقية، لكنه كان يخشىٰ رؤية ماركوس، وتيخاس، وبابلو، وريفيرو. ما دفعه إلىٰ الغضب و الشعور بالابتذال. أحاسيسه المطلقة تتخبّط أحدها مع الآخر بفوضى عارمة: خوف وقلق وحزن وانشغال علىٰ والديه. تختلط ببعضها فتشكل فراغاً من بياض يثقله كأنه مغميً عليه أو ما شابه... واساه أمر واحدٌ، هو إدراكه لعدّة أمور: أن ماريتا سلكت هذا الطريق عندما هربت، وأن الشبان الأربعة هم من يمكن له أن يراهم في القرية، وأن ما يراه الآن هي الأشجار والساقية، وأن ما يدوسه هي الأرض.

تناول طعاماً سريعاً ثم اتجه نحو الكثبان، أراد فقط أن يرىٰ مجدّداً ذلك المكان حيث بدأ كل شيءٍ، لكنّ تحديد المكان بدقّة لم يبدُ سهل المنال كما ظنّ. وجد أوّلاً البقعة التي شاهدوا فيها ماريتا، ومن هناك انطلق لتحديد المسار الذي سلكوه، رائحة الساقية مقزّزة، والموج عالٍ، حتّىٰ السماء هي الأخرىٰ تغطّت بالغيوم من جديد. وزال النور من القرية بأكملها جاعلاً منها أقل واقعية. تشتت ذهنه ولم يتمكن من تحديد المكان، لكنه تذكر شجرة صنوبر ملوية بلطف وقربها بقعة من الرمل محاطة بانخفاضٍ واضح، الكثبان متشابهة جميعها ويستحيل تقريباً تحديد الموقع بدقة، لكنه مع ذلك حدد النقطة التي ذهب إليها في الليلة الأولىٰ مع فراني، وجد جذع الشجرة الذي جلست عليه.. ظل هناك قليلاً، فأحس أن الكثبان هي التي تحوم حوله وتبحث عنه، كما يحدث في قصص الأطفال الوهمية.

عاد بعد ذلك إلىٰ البيت وفي الطريق انتابه الحنين إلىٰ منزله ووالديه، وأنيتا، سيكونون الآن ثلاثتهم في البيت بانتظار عودته، يتصلون بأصدقائه ولا ينامون الليل... كم مرة أعادوا قراءة رسالته؟ تساءل... عشر مرات أم مئة مرّة؟ يبحثون عن أي دليل فيها وهم يقرؤون ما بين سطور كلماته، علهم يجدون أي معلومة ذات قيمة. يندم أنه لم يكتبها بنبرة أكثر طمأنة مما فعل. وصل إلىٰ بيت العمّة إيلي.

المساء طال جدّاً وكذلك الليل، ولمّا حلّ الظلام بالكامل عاد البيت ليخيفه من جديد. سمع ضجيجاً غريباً قادماً من المطبخ، نهض وصاح: "هل هناك أحدٌ في البيت؟" دون أن يدرك ما إذا كان الصوت حقيقياً أم أن عقله يختلقه فحسب. حاول التفكير بماريتا وبدا له الأمر غريباً:

فهو يفكّر فيها منذ شهرين دون أن تكون ماريتا الحقيقية صاحبة هذه الفكرة بالضرورة، طور أسلوباً مموهاً للتفكير بها، صارت قالباً يعلق عليه أفكاره، يومٌ واحد في هذه القرية، في فصل الخريف، وضّح له هذا الاستنتاج، ودفعه إلى الشك في مغزى رحلته هذه. تراءى له أنه واقف على عتبة افتراضية يحمل الزهور بسخافة أمام فتاة قبيحة، لربما سيهرب إذا ما شاهد وجهها بوضوح.

ما الذي كان ليفعله تماماً لو أنه رآها فعلاً؟

حاول تخيل ذلك بصوت عالٍ وإيماءات؛ علّه يستحضر فكرة واقعية، لكن المشهد طفوليٌ - فكّر - ولا يجيب على الإلحاح الذي أصر عليه: لماذا قطع هذه المسافة قادماً إلى القرية؟

فاضت الليلة بهذا التساؤل عديم المعنى، وبالتفكير بما هو آتٍ، ربما حدث ما لم ولن يكون بمقدوره أن يتوقّعه.

"ها هي ذي أمامك... إنّها هناك" قال لنفسه بصوت مرتفع وقلبه يكاد يخرج من فمه.

بحث عنها في تلك الليلة مطوّلاً، بحماس شديد في البدء أخذ يتلاشى مع التعب، حتّى أنه فكر في أن يتصل ببيته ليطمئن أهله عليه، لكنه عدل عن هذا القرار خوفاً من أن يحددوا مكانه جرّاء الاتصال. برد الجو من جديد وجعلته الرطوبة يعتقد أنه إن لم يعد إلى منزل العمّة إيلي فسيصاب بالزكام مجدّداً.

كانت جالسة مقابل متجرٍ على كرسي صغير، ومعها كيسان بلاستيكيان وضعتهما بين قدميها، وهي تحدّق بالباب الآلي الذي يفتح ويغلق بإمعان، وكأنها تنتظر أحداً. اقترب بضعة أمتار ليتأكد أنها هي، ترتدي تنورة بنية وقميصاً أزرق عليه صورة قطة كبيرة ممحية بعض الشيء، شعرها أطول وتجمعه بخصلة واحدة كبيرة. تسلل إليه شعور بالخجل من شدة بشاعتها، خجلٌ عنيف شبيه بذاك الذي غالباً ما أصابه عندما يفعل أحدٌ ما شيئاً سخيفاً أمام أناسٍ جدّيين وسريعين في إطلاق الأحكام دون رحمة. مشى عليها الخريف وعلى كل شيء من حولها، لكنها هي لم تتأثر به كالآخرين ربما بسبب سذاجة وبساطة شخصيتها الريفية، عيونها أصغر مما كان يتذكّر. نبض قلبه بقوة شديدة، وذعر وفكر أن صوته سيرتعش إذا ما تحدّث إليها، ووثق تماماً من أنه سيفشل فشلاً ذريعاً في ذلك، اقترب منها بضع خطواتٍ، ثم تجمّد لبرهة فالتفتت هي إليه.

"مرحباً"

"مرحباً" دون أن يتغير شيءٌ في ملامحها.

"ألا تذكرين من أنا؟"

وأحسّ للحظة أنه يفعل أمراً غير منطقي... كغيمة من الحليب في كأس من الشاي. تجمّدت ردة فعل وجهها، ثم غاصت بخفّة نحو الداخل، بدا عليها غليان ما لكنها بدت مرتاحة و مسترخية.

"نعم.. أنت فتى الصيف"

"لقد جئت من مدريد!"

بدأت ركبتاه ترتجفان، وهو يقف غير مرتاح فيما تجلس هي على المقعد بالقرب منه، شرد ذهنه في حالة تشبه النوم، رأى كل شيء وهمياً فجأة كأنه في كوكب الأحلام، لكنّ ماريتا كانت واقعيّة.

"لماذا جئت؟"

"لكي أراكِ!"

صمت لثانية وهو يستجمع قواه، وكان يفكّر بأن يصارحها بكل ما يفكّر به، ثم تدارك على الفور... ما الذي سيقوله لها؟.. هي أصلاً ليست مهتمة بالأمر، لكنها سألت... لم يكن باستطاعته معرفة ما يجول في رأسها.

"ماتت عمّتك أليس كذلك؟"

"نعم نعم... ماتت في النهاية!"

"مسكينة!!"

ثم صمت من جديد لكن كسرته ماريتا هذه المرّة

"فراني رحلت عن القرية"

"لم آتِ من أجلها... قدمت من أجلك أنتِ"

"أنا"

"نعم من أجل ما حدث في الصيف"

"ذاك الأمر؟؟"

اللغز في الأمر أن شعوراً ما بالخيبة أو الخجل انتابها، دون أن يكون له أي علاقة... كانت هي السبب في إحساسها هذا... ربما كانت هي كذلك دائماً أو أنها طريقتها في التعبير والسلوك....

"أنت لم تفعل شيئاً"

أراد البكاء وقتها، ضغط على فكيه بكل قوته، حتّى أنه أراد كسر أسنانه جميعها. ثم أصرّت ماريتا: "أنت لم تسبب لي الأذى"

كان ذكاؤه يطوف مسافاتٍ شاسعة بسرعة الضوء، حيث قرر هو التأقلم مع الأبعاد الجديدة، وفي الوقت نفسه مع ماريتا.

هي تـداعب طـرف الكـيس البلاسـتيكي وتنظـر باتجـاه بـاب المتجـر، أخفضت وجهها ولم يعد يستطيع رؤيته بما أنّه واقف.

لماريتا ذراعان قويتان وعمود فقري محنٍ قليلاً، وضـع يـده عـلى كتفهـا فانتفضت راجعة إلى الخلف، بالنسبة له رأى الموضوع كعقوبة. وقفت هـي فجأة وتوجّهت نحو سيدة في الأربعينيات من العمر خرجـت مـن المتجـر تحمل أكياساً: "هيا ساعديني ولا تقفي هناك كالغبيّة"

تقدّمت ماريتا وأخذت الأكياس.

السيدة لئيمة وقبيحة جدّاً، كما لـو أنّ قبحهـا تطـوّر عـلى مـدى أجيـالٍ ثلاثة، لها عضلات تشبه الرّجال، وأقدامها نحيلة كالأسلاك تفتحهـا لـدى المشي بطريقة غريبة.

"ومن هذا؟؟ صديقك؟" سألت دون النظر إليه

"لا، إنّه فتى يأتي في الصيف"

"أدعى توماس" دون أن يسأله أحد عن اسمه

"حسناً، هيا بنا بسرعة"

"سأعود غداً إلى مدريد"

مضت السيّدة

"حسناً" قالت ماريتا ثم لحقت بها دون التفات.

بدأ يتذكّر عندما استيقظ صباحاً، ونظر إلى المرآة في حمام منزل العمّة إيلي وكانت المياه مقطوعة، لم يستحم منذ ثلاثـة أيـام، وخرجـت منـه رائحـة لم يشمها من قبل، فهي المرة الأولى التي لا يستحم فيها لثلاثة أيـام متتاليـة في حياته، يحاول تفهم الموضوع بعقلانية، لكنه عندما يتحرّك يشعر بأن ما فعله غير صائب، دون أن يعرف لماذا، وما هو الخيار الصحيح الذي توجّب عليه فعله. أخذ يلبس ملابسه ويجهّز حقيبته للعودة إلى مدريد.

العودة إلى مدريد بدت محمّسة وأثلجت صدره، كونها ستأخذه إلى مكان ينتمي إليه فعلاً في هذه الحياة، أخذ يفكّر في والديه وأنيتا وردَّة فعلهم لدى عودته. سيكون هناك عقابٌ حتماً، لكنه متصالح مع ذلك.

سيكون العقاب بسيطاً، أربعة شهور دون الخروج من المنزل، أو ستة ربّما.. أو عامٌ كامل، لا يهم طالما أنه سيمكث في عالمه. فهذا النوع من العقاب مصمم له، عالمه تعيش بالأساس، لا يجرحه شيء.

تستمر الذاكرة في محطة الباصات، الباص المتجه إلى مدريد خرج منذ خمس دقائق فقط، والباص التالي سيخرج بعد خمس ساعات. خرج يجول في الشوارع مفكّراً في الذهاب مجدّداً إلى باب مدرسة ماريتا، وبالفعل وصل إلى هناك لكن الباب كان مختلفاً عن اليوم السابق، هناك زينة احتفالية والأولاد والفتيات متنكرين وبصحبة آبائهم، تقدّم قليلاً فرأى أربع أميرات مختلفات، اثنتان ترتديان فساتين وردية، وأخرى ترتدي فستاناً أزرق سماويّاً، والرابعة تلبس ثوباً طويلاً أبيض. كنّ سعيدات بكونهن أميرات لدرجة أنهن لم يأخذن استراحة أو نفس من هذه السعادة. وكان هناك قرصانٌ يرتدي معطفاً مفتوحاً مع وشم في صدره على شكل جمجمة، وكان يحك عينيه بغرابة، وشابٌ آخر تنكّر بزي رجل آليٍّ مصنوع من الكرتون، وأحدهم تنكّر على هيئة كيس من السكاكر حاملاً كيساً شفافاً مليئاً بالبالونات الملونة. وكان التنكّر الأكثر إبداعاً هو تلك الفتاة الهادئة والواقفة قرب أمها وهي ترتدي زيّ معجون الأسنان، وتضع على رأسها قبعة حمراء مدوّرة تشبه غطاء ماسورة معجون الأسنان وهي تردّد: "علينا غسل أسناننا ثلاث مرات كل يوم، مرة بعد كل وجبة".

الغريب في الأمر أنه لا يذكر محاولته البحث عن ماريتا، يقف هناك مستمتعاً بما يرى ببعض البلاهة، يرى في هؤلاء الصبية والفتيات المتنكّرين

عالماً جديداً يجهله بالكامل، وجوههم جميلة، مركّبة ومعقدة الفهم، تنفّسهم ثقيل. كان دائماً مهتمّاً بتأمل سعادة وفرح الآخرين كما لو أنّها تحرك العواطف عنده.

ثمّ تذكّر رؤية ماريتا من جديد، الفريد في ذاكرته أنها غير متوقعة أو مقروءة، شعر بالتوتّر، فالحياة لا تنفكّ تضعه في مواقف عصبية، هناك معضلة ما عليه حلّها، ووراء هذه المعضلة يقبع العالم ومشكلاته الواقعيّة. هي أيضاً وقفت على بعد أمتارٍ من رفاقها تتأملهم، وحيدة وغير متنكّرة، اقتربت من إحدى الأميرات وحملت لها ذيل ثوبها ثم أفلتته، اقترب هو منها.

في ذاكرته حديثٌ مخطّط، ربما في الواقع كان أكثر التفافاً:

"لم ترحل بعد إلى مدريد؟"

"سأرحل في المساء"

"أها"

يسألها متحمّساً وهو راغب في البقاء معها

"أتعجبك أزياء التنكّر هذه؟"

"نعم، لكن ليس جميعها، هذا مثلاً لا يعجبني البتة" أجابت وهي تصرخ تقريباً وتشير إلى زيّ معجون الأسنان.

"ولِمَ لم تتنكري أنتِ أيضاً؟"

"لم أعلم بوجود الحفل"

قفز اقتراحٌ إلى رأسه:

"هل تريدين أن نبحث لك عن زيّ ما؟ ربّما ساعدتنا معلمتك في ذلك"

"أقبل إذا بقيت معي!"

اختنق عنقه بحسرة عميقة، شيءٌ ما تحت جلده ولحمه، وتحت جفونه تحرّك في الوقت التي ارتسمت شفاه ماريتا فيه على نحوٍ غير مفهوم... فعل

ذات الشيء بفمه وتصوّر على الفور أنه يتشارك معها بأسباب الحياة شاملة ومجتمعة. فاجأه الشعور، كما فاجأته ماريتا نفسها، دفعها خجلها إلى طلب رفقته، فهي لا تريد لأحدٍ أن يدرك وحدتها. خجلٌ متنكّرٌ في زيّ لحم بشري شديد الإنسانية وطيبٌ للغاية. فكّر وهو يتأقلم مع الرطوبة: هذا هو ما يتوجّب عليّ فعله إذاً.

"ثمّة بعضها في الخزانة"

أجابت المعلمة بعد أن طلبا منها.

هذا هو تماماً ما يذكره بعناية، هو وماريتا واقفان أمام خزانة الأزياء

"أي زيٍّ ترغبين؟"

"زيَّ النينجا!"

"غير موجود!"

"ماذا يوجد هناك؟"

كانت المرّة الأولى التي يحدق فيها بوجه ماريتا دون أن يبعد نظره مضطرباً، فيما كانت هي تتأمل خزانة الأزياء... كانت هي دون منازع الصّورة الأكثر صفاءً في ذاكرته.

وجهها وهي تنحني وتقلّب الملابس، صورةٌ قاسية مليئة بالجلد والخوف. لكنّها هي كذلك. ولن يفعل لها أحدٌ شيئاً. هذا أمرٌ لا يمكن تفاديه.

إذاً قوّته هو تكمن في تفاصيل وجهها الصاخب، لبابلو وتيخاس ماركوس وريفيرو صلابةٌ اكتشفها، وله هو أيضاً صلابة... وها هو ذا يكتشفها.

"هناك زيّ راعٍ" قال لها

"هل ثمّة شيطان؟"

"لا يوجد شيطان، هنالك رداءٌ روماني!"

"روماني!!" تجيب ماريتا بإعجاب.

لكن هل كانت الذاكرة حقاً كلّ هذا؟؟؟؟

هل ماريتا الرومانية هي الذكرى؟ أم أن تعاسته معها كان الحدث الجلل في الذاكرة؟ هل وقعت الفتاة المتنكّرة بكيس السكاكر فعلاً وأثارت جلبة وقلقاً جمعيّاً؟ الذاكرة لا تكذب.. هو يعرف ذلك.

بدت ماريتا مختلفةً في زيّها الجديد، مع سيفٍ بلاستيكي وترسٍ هزيل، تدير معركة النضج هذه.

"هل تريد التعرّف إلى رفيقي؟" سألت

"نعم بالطبع" قال القرصان

ثم رد القرصان: "لا يعجبني"

"لماذا؟"

"لا يعجبني الطبيعيين من أمثاله!"

هو يتحرّك مع الروماني في اللعبة. لكن هل هذه هي اللعبة حقّاً؟ أن يرضي دلال ماريتا-الروماني؟ أم أن يطلع عليه صباحٌ جديد؟

"لطالما أعجبني الطبيعيون، لكنّني لا أعجبهم.. وأعرف ذلك"

لم يكن إعلاناً أطلقته لتثير الشفقة، إنها تصريح حقيقي وحلوٌ كالربيع.

أمسك بيدها، فشدّت هي بقبضتها القوية والثابتة كقبضة رجل.

فهم الآن أن لماريتا شخصية مسكونة بالحساسية والاعتناء، تراقب كل شيء بانتباه شديد، حتّى هو بالنسبة لها كان غرضاً مدهشاً تتأمل تفاصيله.

لديه وقتٌ كثير، واللعب ممتعٌ للغاية، ثمة ألعاب يتشارك فيها الآباء أيضاً، وأخرى يلعبونها هم فيما يراقبهم الآباء.

ماريتا تختلف عن الآخرين: فالمتعة في اللعب بالنسبة لها تكمن في أهميّة أن يتأمّل المرء اللاعبين، لذلك فهي تتوقّف عن اللعب حين يتوقّف هو عن النظر إليها، تحس أنها تعرفه جيداً، وأنها أمضت معه وقتاً طويلاً كهذا الذي

يقضونه الآن، تركض نحوه وتعانقه، جسدها الروماني وقوتها البدنيّة دفعاه إلى التفكير: لا يتوجّب عليه فعل أي شيء سوى دعمها والإيمان بها، ومعرفة أنّها بطلة فعلاً... لكنّ هذا كلّه كان ممزوجاً بالحزن في ذاكرته.

أحياناً يتذكّر أنه أراد المكوث هناك صامتاً وسابحاً في الهواء. حان وقت الرسم فجلست وأسندت رأسها على كتفه، رأسها ثقيل نوعاً ما:

"أهديك هذه الرسمة"

امرأة وكلب، بلونٍ أخضر وملامح عنيفة، هنا يفكّر ويشعر بالحب تجاهها...... أو ربّما بعد ذلك بقليل، عندما نظر في ساعته واقترب موعد الحافلة من المغادرة، فقال لها: "عليّ أن أتحرّك يا ماريتا" فأجابت هي: "لا".

وقد يكون أحس بالحب حين رافقته ماريتا في ربع الساعة الأخيرة إلى محطّة الباصات بزيّ الروماني وعلّقت: "سأعود غداً من أجل ملابسي.. أريد أن يروني في المنزل بزي التنكّر" ثم أكملا طريقهما وهي تميل نحوه بصمت.

قد يكون أحبها في الثانية الأخيرة، وهو ينظر محتاراً في وجهها الكبير المليء بالحياة كالخبز، عندما اقتربت منه قرب الحافلة، والناس ينظرون إليهما باستغراب، ثم قالت: "آهٍ لو كنت حبيبي"....

رغبةٌ عارمةٌ تنتابه في كل مرّة تتحرض فيها الذاكرة، بالعودة إلى محطّة الباصات تلك... بالعودة سنتين، خمس سنوات أو خمس عشرة سنة إلى الوراء. إلى ذلك المشهد الذي يعانق فيه شابٌّ ساذج فتاةً رقيقة بزيٍّ روماني، ليرفع يده في وجه القوانين الفيزيائية المتحللة إلى عواملها ومكوّناتها الدقيقة تحت المطر المتّصل، كشلّال الرغبات المطلقة الذي تلمع فيه رغبةٌ واحدةٌ أصيلةٌ وصادقة كجمرةٍ متوهّجة: بتقبيل ماريتا.

الفهرس

هذا الكتاب..

هي رحلة الولادة الجديدة. مسيرةٌ يرسمها أندرس باربا بسلاسة فريدة، خطوة خطوة مع مراهق إسباني بدأت الحياة تدبّ في حواسه، وتدفعه لاكتشاف عالمٍ متناقضٍ، مليءٍ بالحقائق المتباينة، وخالٍ من مثاليات الطفولة التي تولّي.

رحلة نفسية دقيقة في عالم المراهقة الغامض، تقود توماس إلى القاع الحقيقي، بجانب أصدقائه الجدد: الفقر والانحطاط.. ليذهب إلى أعمق تجربته السرية الخطيرة، فلا ينقذه من عدمية تلك الهاوية سوى مشاعرٍ مفاجئة، تحييها صبيّة ذات إعاقة وأطوار غريبة، تعيد ما تشوّه فيه إلى براءة الطفولة المفتقدة







